

تصريح

اشتمل هذا العدد من مجلة « قصص » على ملف خاص بالقصاص الكبير الاخ البشير خريف يعتبره نادى القصة من أبرز العناصر التي حرصت على ايجاد هذا النادى واستمراره . وكان هو بالفعل لبنة صلبة فى هذا البناء الذى نعتز به ، والذى سوف يعتبره الدارسون للقصة التونسية الحديثة أكبر مساعد وأحنى محتضن للقصة التونسية المعاصرة . كما يعتز هذا النادى بأن ركيزة النجاح التى واكبت حياته تعتمد الروح السمحة والنظرة السائلة البريئة ، والتعاطف فى مختلف الاجيال من أعضائه ومن المنتسبين اليه . وتلك من أبرز الصفات والمناقب التى يتحلى بها أخونا البشير خريف ، ويدعو الى اكتسابها والتحلى بها . ولهذا كله فنحن لا نعتبر هذا المصنف هو كل ما يستحقه منا البشير خريف وإنما هى تحية متواضعة يشارك بها نادى القصة تلك التحايا التى صدرت من هنا ومن هناك تنويعا بالبشير خريف ، واعترافا بفضلته على القصة والادب فى تونس . واذا طوحت ببعض التحيات سبحات عطف ، وتحويكات محبة فاننا فى هذا التصدير نؤكد على أن التكريم الحقيقى للكاتب والاديب يتمثل فى الاقبال على ما يكتب ، والتفاعل مع ما ينشئ حتى تتسع دائرة الصدى ، وتنداح دائرة الاشعاع . لان ذلك هو الاساس . ولان ذلك هو المسبر السليم والصحيح لمعرفة المنزلة الحقيقية التى يحتلها الاديب فى

مجتمعه . والمجتمع وحده هو المسؤول عن ذلك ، لانه هو المتقسي - او الذى ينبغي أن يتلقى - أما أن نحاول الابتعاد عن تحديد المسؤول الحقيقى ، وأما أن نبحث عن المتكآت والتعلات المبعدة للمسؤول الحقيقى فاننا نحسب ذلك من التهويمات التى لا تجدي ، والتى أشار اليها حنطة البرمكى من قديم الزمان عندما قال كلمته الساخرة بالمجتمع الآكل بالهجان .

« .. وبأحسننت لا يباع الدقيق » .

« قصص »



نبشات في جدار الزمن

عبر الشباك تسبح نظراتك بعيدا في الافق . تتركز على نقطة ثابتة غائرة
تدور حولها الحقول . أعمدة الهاتف تنسحب بسرعة واحدا تلو آخر . بعض
العيون تتعلق لحظات بكومة الحديد المنطلقة ثم تعود الى دأبها الوئيد . هنا
وهناك بعض قطعان يجفلها الهزيم المدوى والصفير الحاد . تعود تتطلع الى
وجوه نحيلة كالحة جائمة على المقاعد . بعضها مستسلم لطغيان النوم وبعضها
منهمك في حديث تؤد كلماته تحت قرقرة العجلات على قضبان السكة .
تنكس بصرك . يقع على جراب بين رجلين أودعت به شايا وسكرا وكاكاوية
و «حراما» «وفولارة» من النوع الذي تحبه . «فولارة» زاهية الالوان كتلك
التي قدمتها لها آخر مرة . لفت بها شعرها المخضب بالحناء . وارتسم على
جبينها رقرق سرور خفي واحتضنتك . تفوس يدك في جيب سترتك وتعود
ماسكة ورقة زحف اليها التهرؤ . تقرؤها للمرة العشرين . «احضر حالا»
تأمل البرقية لحظات . تحاول أن تنفذ الى ما وراء حروفها تستشف خفاياها
تعيدها الى جيبك .

هزيم القطار الرتيب يهددك . تزدهم الصور المغبشة على زجاج النافذة .
يغلف المراثيات ضباب كأنك تحلم . تظل تنشد عينيها . تبحث في أغوارها
البعيدة عن طفولتك .

تترأى لك عائدة من الحقول ترفع عقيرتها بالغناء وخلفها النسوة يرددن
أهازيجها وفي زريبة البهائم تعلفها وتسقيها . ثم تنساب الذكريات مترعة
بالاسى فتراها على عدوة الهر حيث تقضى الساعات الطوال صامتا مسرلة
بالكتابة ، تضطرم في حنايا نفسها خواطر تطفر بها عيناها الحزینتان . ولا تعود
الى « الدوار » الا حين يرتفع نقيق الضفادع ، ويختلط عواء الذئاب بنباح
الكلاب . صارت تلك عاداتها .

تذكر يوم رافقتها الى النهر وجلست حذوها تتأمل انسياب الماء وتتابع
بعينيك فتاة تلهو في مزرعة بالضفة المقابلة . امتد الصمت بينكما . رنوت

اليها بعينين تهيم فيهما شوائب الكدر . كانت شاخصة في النهر ترسل
نظرات ثاقبة ، تحاول الفاذ الى جوفه ، حين باغتها صوتك .

– أريد أن أعبر النهر .

– لا !

قالتها بعنف والغضب يتوثب بين حاجبيها .

دهمتها قشعريرة مفاجئة . قطبت منزعا وقد تخضب وجهك بالدم .
امتدت اليك يدك تجذبك بلطف . ضمتك الى صدرها وغمغت .

– لا أريد أن يأخذك منى . لا أريد .

وأحسست قطرات ساخنة تنزلق على خدك .

حين سبغ في المكان الظلام وهبت نسيمات باردة تلفح الوجه ، مضيت خلفها
عائدا الى «الدوار» بقلب تكبس عليه غيوم الكآبة . في البيت ظلت منظوية على
أحزانها . . . اكتنفت الفراغ . . . طاردك قلق متلفع بظلمة الليل . تذكرت ليالى
كان يطول فيها السهر . كانت تجمعكم حولها أنت وأخوتك حتى امك كانت
تنضم اليكم . . . ابوك فقط كان يظل متربعا على قروة خروف يلوى شفتيه
امتعاضا ويكظم غيظه . كانت ترنو اليكم بعينين تنفذان الى دوامة هواجسكم
ولا تنبس حتى يسود الصمت . تنحبس الانفاس . تشع الاعين . تتسع الآذان
فتقول بصوت هادى :

– وحدوا الله !

فتقولون جميعا حتى والدك :

– لا اله الا الله .

يسود الصمت . تجيل بصرها فيكم ثم تقول :

– وحدوا الله .

يرتفع صوت والدك معترضا :

– من لا يعرف أن الله واحد ؟

تبرق عينها بالمر :

– لقد كثرت آلهة هذا الزمان ، فليوحدوه كي لا ينسوه .

ثم بصوت حازم :

– وحدوه !

فلم يبق منكم واحد الا قال :

– لا اله الا الله محمد رسول الله .

وتضيف :

– صلوا على النبي الهادي .

فتردون جميعا – حتى والدك :

– «ألف ولا يزيه»

وتشرع في سرد حكاياتها . هي لا تحكي حكايات رأس الغول وعلى بن السلطان والوزير سالم . حكاياتها لم تعدها . وكذلك أبواك وإخوتك . حتى «الدوار» لم يعدها . كان أبواك يقطعها كثيرا ، ويهر منكبته باستهانة .

– خرافات .. خرافات .

وكلما تقدمت يخفت صوته . وحين تسكت يرهقه الصمت ، ينخس جنبه فيسأل بلهفة :

– ايه ... ماذا جرى بعد ذلك ؟ ... واصلى ...

ولما تنتهى ينفث في وجهها اعتراضا مشحونا بالتوجس :

– لا تعودى لهذه الخرافات . انى اخشى عليهم خرافاتك .

لم تكن تفهم لماذا يخشى عليك والدك حكاياتها . كنت تتوسد ركبته وتظل تسمع الحكاية حتى يأخذك النوم الى عالم الاحلام السحرية . وحين تفيق تسمع البقية من أمك او من «الدوار» لان حكاياتها كثيرا ما تكون حديث «الدوار» أياما طويلة .

تخف السرعة تدريجيا • تحتك العجلات الفولاذية بالقضبان في صلصلة
ثاقبة • يتوقف القطار • يشتد الهياج يعلو الصراخ • يتسابق النازلون •
يصطدمون بالصاعدين تتلاحم الاجساد • تتلوى في محاولة للانزلاق •

تضيع وسط الزحام قفة • يتغمد الضجيج عويل طفل حالت بينه وبين أمه
الاجساد •

يستأنف القطار رحلته • ما يزال الركاب يتدافعون بحثا عن مقعد • تحاول
أن تغوص ثانية في غياهب الماضي •

ولكن صراع المسافرين يظل ماثلا أمامك • يذكرك بعالم الاسماك العجيب.
القوى يلتهم الضعيف • فينحسر الستر عن الامس وتنساب الذكريات •

من جديد ترى ذلك الوجه وتلك القسمات التي تشهد بجمال دابر •
تراها وهي تروي آخر حكاية لها : تحدثت عن نهر كم الذي يصب في البحر •
قالت ان البحر به حيتان كثيرة • تعيش في تنافر وتدابير • تذكر أن والدك
قاطعها معلقا : «حوت يأكل حوت وقليل الجهد يموت» : أومأت برأسها
وواصلت : برز للحيتان يوما حوت صغير • قالوا من الحيتان النبيلة وقالوا
من الحيتان الخبيثة : قال «يا معشر الحيتان • مملكة البحر شاسعة وبها
الطعام لكل فم : فلماذا تنهش أنيابنا أجسادنا » ودعاها الى أن تجمع على
قانون يحرم اكل الحيتان ، ويجعل من يخرقه عرضة لغضب الحيتان جميعا •
استبشر الحيتان واختارت الحوت ملكا عليها ، يسهر على تطبيق القانون
الجديد • وصارت تطعم من النباتات الموجودة في قعر البحر ، ومن الفضلات
التي تلقى في عرضه • وعاشت في سلام •

وحدث أن مر ملك الحوت في جولته اليومية بسمكة جميلة . قالت انها
اخذت لبه وحركت فيه غرائزه فعزم على اكلها •

قال والدك :

- لا يستطيع • القانون يحميها •

- قالت أمك :

- نعم • القانون يقف في وجهه •

قلتم جميعا :

- سيموت حسرة •

سكنت طويلا حتى خيم على الوجوه صمت ثقيل ثم قالت :

- لم يمت حسرة ... لقد نال مبتغاه •

تركت المفاجأة آثارا عميقة على وجوهكم • قلتم بصوت واحد :

- أكلها ؟

- أجل !

قالت امك :

- الملك خرق القانون • الحيتان ستعاقبه •

أجابتها ببرود :

- الحيتان لم تفعل شيئا • الملك لم يخرق القانون •

زحفت الحيرة تتلوى داخلكم • ترامقتم في ذهول •

تشاءبت بافتعال • أسرع والدك يمدحها بقدر من الشأى يذهب عنها النوم •

رشفت قدح الشأى بتؤدة •

تابعت حركاتها العيون • بدت اللحظات دهورا سحيقة الغور •

- رائع •

- ماذا ؟

- الشأى •

ينفجر والدك :

- ما لنا والشأى • نحن نتحدث عن ملك الحوت • قلت لم يخرق القانون •

كيف ؟

رنت اليكم ببصر زائع ايدانا بأن الحكاية اوشكت على النهاية ، وقالت :

- جمع كبار الحيتان . . وعدها بأكل شهى مقابل المصادقة على قانون جديد يمكنه من السمكة الجميلة . وتوثبت غريزته واشتد نهمه فصار كلما رغب فى سمكة سن قانونا جديدا ودعا كبار الحيتان للموافقة .

وعاد البحر الى سالف عهده . « حوت ياكل حوت وقليل الجهد يموت » .

★ ★ ★

تجدهم فى انتظارك . تنزل من القطار . تتلاقى الاجساد فى احتضان طويل . ولكن بين جسدك واجسادهم يبقى حائل رقيق من الغربة لا يذويه الاحتضان . تتلاطم النظرات . تكس الابصار . يفجر أخوك باكيا . تبحث فى عينيه المبللتين عما جاء بك . ينحسر الستر عن النبأ المكتوم تنطحن به . يهدم الدفء فى سرايينك . تنزلق الكلمات فوق وعيك . تمضى بقلبك الثقيل فى صدرك . فى الطريق الى « الدوار » تسألهم :

- كيف وقع ذلك ؟

يتجلى صمت ثقيل . ينداح على وجوههم القلق ثم يتحدثون كل بما يعلم . يقولون : انها اختفت . ربما غرقت فى النهر أو غابت عن وعيها فأكلتها الضباع . ولكنهم لم يعثروا على جثتها أو حتى عظامها ، ربما حملها التيار أو جرحرتها الضباع بعيدا . الثابت انها اختفت ، ولكن لا أحد يعلم كيف أو أين .

على حافة النهر حيث شجيرات الدفلى والاعشاب البرية والاشواك المنتقشة تنهالك . وتظل تنظر الى النهر بعينين سامدتين . بعض أشعة فاترة تغلت من حجاب الغيم السميك وتترامى على صفحة الماء الباهتة. هاهنا كانت تختل بنفسها منذ أن رحل عنها ولدها رحلة أبدية . وتظل ترمق تلك النقطة الثابتة الغائرة كأنما تنتظر انبجاسة من جوف النهر . وتتمتم فى هلوسة : « انه يناديني » .

لما زلت تذكر تلك الليلة . كانت تهى نفسها لاعادة حكاية ملك الحوت حين سمع والدك نباحا مكثفا آتيا من جهة النهر . تلفع بقشاييته . انتعل حذاءه . تناول هراوة كانت معلقة بمسمار فى الحائط وحمل فانوسا وخرج .

ولم يعد . سمعتم صوته يشق سكون الليل ويطنى على نباح الكلاب ثم يبتعد
تدريجيا الى ان يغيب . وحين خرجتم لم تقفوا له على اثر . كانت الكلاب رابضة
فى مكانها تهر هريرا خافتا . وفزع اليكم الرجال بالمشاعل والفوانيس يبحثون
عنه حتى انجاب الليل عن خيبتهم . وتلا تلك الليلة اسبوع كامل من البحث
المضنى . فى اليوم الثامن قالت لك :

– أنا أعرف مكانه .

كادت المفاجأة تذهب بأنفاسك . تهلل وجهك بشرا ورنوت اليها بعينين
تطفران فرحا . وسألتها .

– أين ؟ قولى .

فأجابت ببرود شديد :

– هناك . فى قعر النهر حيث ملك الحوت .

جفت ينابيع الفرح فى وجهك . ماتت الابتسامة فى شفتيك وعدت تسألها
ببلاهة :

– ولكن ملك الحوت يعيش فى البحر .

– كان يعيش فى البحر يوم أن كان عادلا . أما اليوم فقد امتدت أذرعه الى
الانهار والاوادية وحتى الترع الجداول والغدران والسواقي . انه كالشيطان
موجود فى كل مكان . انه لا يرحم من يغوص فى لججه .

تركز نظرك على تلك النقطة الثابتة الغائرة وتحس صوتا ضعيفا يثز فى
أذنيك .

ثم يصبح عميقا مجوف الاصداء . تغمغم ذاهلا :

– انه صوتها .. انها تناديني .

أبو بكر العيادي

رادس فى 9 - 10 - 81

من روائع الأدب البلغاري :

خطيئة

قصة : لارلن فاسيلان

من كتابه : « قصص مختارة »

تعريب : عبد الرحمان بن خليفة

انتهت الندوة الجهوية لرجال التعليم في آخر المساء؛ فغادرت المدينة أنا والأب ميشال واتجهنا نحو القرية ساعة غروب الشمس . كانت الخيول تجر العربّة على الهضاب ببطء، ثم انطلقت بسرعة وسط حقول الذرة في السهول الممتدة نحو نهر الدانوب .

كانت عجلات العربّة تدور دورانا رتيبا وتميل بنا ذات اليمين وذات الشمال فتجلبني حركتها الى النعاس جليا .
كنا قد قطعنا حوالي نصف المسافة اذ شعرت بالعربة تتوقف عن المسير وسمعت صوت الأب ميشال يسألني :

- « هل أنت نائم يا سيدي ؟ » .

قلت مذعورا مرتعشا :

- « كلا ! بل أنا ساهر » .

قال :

- « بودى أن أوقف العربّة هنا . فبجانب الجداول مراعى يمكن للخيول أن ترعى كالأها وتستريح بينما نحن نستعيد نشاط سيقاننا المتجمدة » .

قلت : « نعمت الفكرة ! » .

أوقف الأب ميشال العربّة بجانب الطريق ونزل منها وسرح الخيول . نزلت بدوري وفرشت معطفي على الحشائش وتمددت على ظهري . قاد الأب

ميشال الحيول وراء الخندق المحاذي للطريق وحملها على أن تتمدد على الأرض .
ثم عاد وهو يبحث عن المكان الذي اخترته لأستريح . وقال :

– « هل أنت هنا ؟ » .

قلت :

– « أنا هنا ... أجلس بجانبى » .

أخليت له مكانا صغيرا على معطفى . لكن الأب ميشال استلقى على الحشائش
واسند رأسه الى يديه واستسلم للراحة . كنا نرى فوقنا رقعة واسعة من
السماء الزرقاء الداكنة العميقة وقد ترصعت بالنجوم اللامعة . كان الصمت
سائدا حولنا لا يقطعه الا حفيف مزارع الذرة وراء الطريق بينما انطلق
عصفور فى إنشاده من أعلى شجرة إجاص . كانت ساعة الصمت العميق ،
ساعة منتصف الليل ، عندما يمكن لك أن تشعر بكرتنا الأرضية تسير
مسارها فى الفضاء المتراعى الاطراف على أمل اللحاق بمصاف النجوم
السحيقة . سألتى الأب ميشال فجأة :

– « أتشعر ببعض الخوف سيدى ؟ » .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

رددت :

– « أى خوف تعنى ؟ » .

تمادى الأب ميشال فى غموض :

– « هذا ما أشعر به . ألا تشعر بنفسك فريسة نوع من الفرع ؟ أما أنا

– والحق يقال – فلا أخلو من بعض الخوف » .

ابتسمت ، وأنا أستمع الى اعتراف الفلاح الذى كان يتحدث فى بساطة .
ولكنى كنت أشعر أنا أيضا بأن هذا الليل الكئيب وهذه السماء المضيئة
يثيران فى ، أنا أيضا ، بعض الحيرة العميقة التى أجتهد فى كبتها . تحكمتم فى
صوتى وشرحت له :

– « هذا نتيجة العزلة الليلية يا أب ميشال .. إنه خوف عالق بنا منذ عهد
الانسان القديم عندما كنا لا ندرك سر نظام العالم » .

رد الأب ميشال الذى كان يشك فى تعليلاتي :

« كلا .. الامر لا يقتصر على العزلة .. بل هناك سبب آخر . فكم من مرة فى مثل هذه الليالى بقيت متمددا فى انتظار أن ترعى الحيول حسب مشيئتها كنت أتأمل لمعان النجوم واذا بى أشعر بالرهبة تسيطر علي فجأة . كنت أقول لنفسى : لا ! يستحيل ألا يكون هناك فوقنا فى مكان ما من يراقب ساعة ينادينا فيها المنادى قائلا : أنت يا ميشال تقدم الى هنا ! الزم مكانك بين يدي وقدم الحساب ! » .

« ولنفرض ! ما يهمك من هذا ؟ ستقدم له الحساب » .

قلت هذا وأنا سعيد بمدى تأثير النفوس الساذجة أمام لا نهاية الطبيعة وعظمتها وكيف تتولد فيها الحاجة الى من هو أعظم منها شأنا حتى يطبق على الكون بأجمعه مقاييس الخير والشر السائدة فى كرتنا الارضية هذه . أضاف الأب ميشال فى إعياء متزايد :

« أنت ترى الامر بسيطا ، بودى أن أراك تقدم حسابك لو كنت أنت أيضا قتلت نفسا بشرية مثلما فعلت !
نهضت متسائلا فى لهجة الفزع :

« ماذا .. ماذا تعنى .. ماذا تقول .. هل قتلت حقا ؟ من قتلت ؟ »

« من قتلت ؟ قتلت نفسا بشرية .. شابا فتيا على غاية من الصحة والسلامة .. قتلت أبا ... » .

« هيا .. ألق عن المداعبة ! » .

« لا مجال للمداعبة فى كلامي » .

أخرج ميشال سيجارة من علبتها وأشعل عود ثقاب ، وهو يحيى ناره المرتعشة براحته . وأضاءت هذه النار الضعيفة لحظة وجهه الباش المملوء طيبة . ثم انطفأت .

رمى ميشال بالعود المنطفىء وقال :

« لا تخف . وابق ممددا فى طمأنينة .. ليس هناك محكمة تنظر فى هذا الاغتيال . الشخص نفسه ينتصب حاكما عما اقترف .. لقد أتمت الصلوات

وبذلت الهدايا والقرايين للزوايا واحتضنت يتيما لأبيه وأنثته . ولكن عبثا كل ما فعلت ! ليس للنسيان سبيل ! تخف الوطأة فى النهار أما فى الليل فبمجرد ما أغمض عيني أراه وإذا ما فتحتهما أراه أيضا . وقد أركض وراءه فى المنام .. أركض مطاردا له . أركض .. ولد .. ولد « كل ذلك هو النرم . وعندما أفكر فى سبب ما جرى ! أمر تافه لا معنى له !

وانساق الأب ميشال فى قصصه فى حماس :

– « كان ذلك منذ زمان .. خلال الحرب .. كنت أقرب مرة جنديين فرنسيين . أسرتهما وهما يحملان قدرا .. أمرتهما بالسير أمامي ولكنهما كانا ماكربين فتغامزا وهجما فجأة علي . فشلا فى التغلب علي لانهما مجردان من كل سلاح . ولكنى اضطررت من ناحيتي الى أن ألقى بجرايى على الارض . تفتنت دوريتهم الى الامر فأمطرت المكان بوابل من الرصاص وتعذر علي أن أخطو خطوة الى الامام . ففقدت جرايى وفقدت معه كل ما أتيت به من بيتي » .

كان ميشال ينقطع عن الكلام أحيانا ويذهب به خياله لحظات نحو ذكرياته . لكنى – فيما يخصنى – لم أكن أحثه على متابعة الكلام . كنت أستمع متمددا أنظر الى السماء المرصعة بالنجوم وأستمع اليه وهو يتحدث عن المنعرجات التى تاهت بها نفسه .

تابع قوله :

– « لم يبد قائدى أى ملاحظة حول الجراب . بل أنعم علي بوسام من أجل تأسيس الفرنسيين . لكن ما عسى يفعل جندى جرد من جرابه ؟ أصبحت أضحكة رفقاءى . كانوا يقولون : « أنت تؤسر جنودا يتقدون حيوية وتعجز عن وجود جراب بسيط – كان الامر مضحكا حقا .. لقد أخذت قميصا متعدد الالوان وخطته فى شكل جراب أصبحت أحمله . كان فى فصيلتى جندى محدود الذكاء يلاحقنى بمداعباته الثقيلة فيثير حنقى .. كل ذلك من أجل هذا الجراب اللعين » .

أشعل الأب ميشال سيجارة أخرى وجذب منها نفسا عميقا . وسألنى – وهو يختنق بدخانها – قائلا :

- « أنت لم تقم بخدمةك العسكرية . أليس كذلك ؟ نعم أنت ما زلت فتى . أنت لا تدرك مدى هول انتظار المعركة . إنه أشد هؤلاء من الهجوم نفسه . كنا جالسين وراء المخبأ بينما كان التراب يفور تحت نيران المدافع المتلاحقة . كان كل شيء يتزلزل حولنا . كنت أحاول صرف انتباهي عن ذلك فعمدت الى آخر رسالة وردت على من أهلى لأعيد قراءتها . كانت الرسالة تعلمني بأنني أصبحت جدا فنجمت عن ذلك حالة غريبة . كان ابني هو أيضا قد دعى الى الثكنة . ومنذ تلك اللحظة أصبحنا مهددين بخطر جديد . كان حفيدي الرضيع في إمكانه أن يصبح العقب الوحيد لنا . كنت غارقا في أفكارى وكنت أشعر بانهميار قواي .. ولكن المداعب الثقيل كان لا يرحمنى فيشير حولى ضحكات الجنود رغم تزلزل الارض تحت أقدامهم بمفعول القنابل . وحتى الضابط كان يحدق في بصره ويتعمد الترفيه عن الجنود فيقول :

- « يا أب ميشال ألم تشعر على جرابك الى الآن ؟ » .

لقد تواطأ الجميع علي فعذبوني بذكر ذلك الجراب المشؤوم . وكنت أستعد للرد على الضابط إذ زلزل مخبؤنا في قوة فققرنا جميعا . ولم نسلم إلا بأعجوبة إذ كانت القذائف اليدوية تمطرنا من كل مكان . ونشبت معركة مهولة .. تحولت نقطة انطلاق القنابل لكننا هوجمنا من طرف مجموعة مرعبة من الجند ، وقاك الله شر رؤيتهم في الظلام .

قتلنا منهم الكثير ، لكن بعض قذائفهم انفجرت في خنادقنا . واستمرت المعركة وجها لوجه ، ولا أحد يمكن له أن يتذكر على وجه الضبط ما وقع . المهم أننا تمكنا من رد هجومهم وطاردناهم بقدر ما مكنتنا من ذلك فلـول قواتنا .

وفي هذه اللحظة بالذات وقع ما وقع .

كنت توقفت عن الزحف . ومسحت العرق عن جبينى بكمي . وفجأة انطلق فرنسى من أجمة هاربا . نظرت اليه . كان يعرج . لا شك أنه أصيب برصاصة وانخلعت ساقه . وقد بلغ به الإعياء والجهد مبلغا كان لا شك يجعلنى أطلق سبيله لو لم ألمح الجراب الاصفر على كتفيه . وكأن برقا خطف بصري فشعرت بدفع جديد لا أدري سببه . انطلقت في مطاردته . كنت أركض وأنا

أقفز على الحنادق والجثث . أصبحت لا أرى شيئا سوى لون جرابي الأصفر الذى يتراءى لى هنا وهناك . تفتن الى ملاحقتى والتفت ليرانى لكنه عثر وسقط ، حاول النهوض من جديد . ولكنى أدركته وانحنيت عليه صارخا وأنا أمسك البندقية من جعبتها لكنه مد نحوى يديه وصاح :

— ولد ... ولد

فهمت فيما بعد معنى هذه الكلمة باللغة الفرنسية .

كانت شفته السفلى تسيل دما . أدخل المسكين يده تحت سترته . ظننت أنه سيستل منها سلاحا ولذا ضربته بكل قواى بمؤخرة البندقية .

لم ينبس بكلمة واحدة . وبقيت عيناه مفتوحتين . وانسلت يده من سترته . كانت تمسك صورة كان يريد أن يخرجها ليتأملها برهة لكنه لم يتمكن .. لقد ارتعشت يده فأخفق .

رميت البندقية وركعت بجانبه — هزته هذا ولكن دون فائدة . أغمضت جفنيه ولكن لا أدري لماذا انفتحت إحدى عينيه . أغمضت جفنها من جديد لكن العين انفتحت مرة أخرى . كان ينظر الى ... أخذت الصورة من يده ووضعها أمام عينه حتى يتمكن من رؤيتها ولكن العين فاضت اذذاك دما .

عند ذلك فقط نظرت الى الصورة الصغيرة . كانت صورة بنية .. بنيتته التى ترتدى فستانا أبيض تستند بقدميها على كرسى مقوس الظهر وعلى جبينها الصغير قطرة صغيرة من دم أبيها الذى كان فمه يسيل دماء . لفت وجهى الى الورا . ولم أبق أتحمل رؤيته . وتذكرت حفيدي الصغير أيضا .

حرك ميشال يده كأنه يطرد ذكرياته وصمت .

كانت السماء فوق رؤوسنا ترسل أنوار نجومها فى الفضاء . وكانت مزارع الذرة تروى بوشوشتها أساطير الارض لكنى لم أكن أرى ولا أسمع شيئا . كنت مشنج الاعصاب مفزعا مسحوقا بهذا القصص المهول . كانت ناردة الجراب تضرم فى أحشائى لهيبا وتخفقنى خفا . ولكنى لم أجروء على أن ألقى سؤالا فى شأنها :

هل استولى ميشال على الجراب يا ترى ؟ هل هذا الرجل البسيط اللطيف المتواضع سلب حقاً جثة الجندي ، الذي يعنى موته منذ سين جرابه ؟

لكن ميشال لم ينتظر سؤال بل اعترف من تلقاء نفسه كأنه يتحدث عن أبسط الامور قائلاً :

- « كان جرابه أحسن من جرابي وقد وجدت به أشياء كثيرة . وقد سررت بالاختصاص بصدارين من الصوف . لقد ارتديتهما أثناء الحرب » .

صرخت في وجهه وأنا أشهق وأمسك شعري بأصابعي :

- « كيف فعلت هذا ؟ » .

كنت في ذلك التاريخ فتى لا يدرك مدى وحشية البشر أحياناً .

رد علي الأب ميشال في جفاء واقتضاب :

- « كيف فعلت هذا ؟ » إنها الحرب أمر فظيع . ألم أقل لك إنني ما زلت الى الآن أشعر بالخوف . لكن يبدو أنك لا تأخذ الامر مأخذ الجد !

وسمعتة ينهض ويتجه نحو الحيول .

وبعد حين عادت العربة الى سيرها على الطريق المنعرجة خلال مزارع الذرة الداكنة . ولم يعد الى القصة التي رواها في الليل الا عندما بدأنا الانحدار نحو نهر الدانوب وبرزت الشمس ساطعة أمامنا .

التفت الي عند ذلك وقال :

- « نسيت أن أقول لك إن مداعبي الثقيل لقي حتفه . في ذلك الهجوم نفسه . لقد كان خبثه يشنج أعصابي » .

تعريب :

عبد الرحمان بن خليفة

- تونس -

حساء مومارتير

قال صاحبى وهو يخترق بسيارته الفاخرة شارع الشانزليزى السابع فى بحر من الانوار المنبعثة من اعمدة الاضاءة القائمة وسطه وعلى جانبه ومن مصابيح السيارات العديدة العابرة له فى هذا الاتجاه وذاك :

– هل تعلم ان شارع الشانزليزى هذا هو أعظم شوارع عواصم العالم على الإطلاق ؟

قلت :

– لا .

سكت لحظة ثم عاد يقول بعد أن خفض من صوت جهاز التسجيل الذى كان يرسل لحنا غربيا ناعما :

– أين تفضل ان نقضى السهرة هذا المساء ..؟

قلت :

– لا أعلم .. أنت أعرف بباريس منى .

قال :

– واضح من حديثك معى منذ حين أنك قمت بجولات واسعة فى أهم شوارع العاصمة الفرنسية وأحيائها وتعرفت على أشهر معالمها . دار الاوبرا ، اللوفر ، نوتردام دى بارى ، برج ايفل ، ساحة الكونكورد ، ميدان الباستيل ، ميدان الجمهورية ، سان ميشال ، سان جورج مومارتير ، برباس ، مونبارناس الخ .

لقد تعرفت على كل هذه الاماكن برغم انك تزور باريس لأول مرة ولم يمر على اقامتك بها غير بضعة أيام .

– صحيح .. ولكن ليس معنى هذا أننى صرت أعرف العاصمة الفرنسية مثلما تعرفها .

– مجمل القول : لقد صارت لك بها معرفة لا بأس بها .

– يعنى

– أرى أن نذهب أولا لتناول العشاء ، ثم ننظر فى موضوع السهرة بعد ذلك .

– ان الوقت ما يزال مبكرا ولا رغبة لى فى الاكل . وأفضل أن نتجول قليلا سيرا على الاقدام .

– على رأيك .. ما قولك فى أن تكون جولتنا بحى مومارتر ؟..
– لا بأس

تركنا السيارة بأحد الاماكن المخصصة لوقوف السيارات وبدأنا جولتنا..
مضيئا نقطع الحى جيئة وذهابا ، وأرادت احداهن الاحتكاك بنا ومراودتنا ،
ابتسمت لنا وغمزت بعينيها سألتنى صاحبي :

– ما رأيك ؟..

– قلت :

– لا ..

كان واضحا أنها من البغايا المحترفات وأنا بطبعى لا أميل الى هذا النوع من النساء .. وطاردتنا امرأة اخرى متقدمة فى السن بعض الشيء ، كان يبدو من لباسها ومن قطع الحلى الثمينة التى تتزين بها أنها على جانب من الثراء ،
لاحقنا فى كل مكان ذهبنا اليه . ، خاطبتنا بعينيها وابتساماتها . ويشهد الله
أنى أشفقت عليها . ورثيت لحالها ، كان فى نظراتها توسل ورجاء ..

وتقدمت منى صبيحة جميلة شقراء ترتدى فستانا أبيض وحذاء أبيض ،
تزين شعرها الذهبى المسرح الطويل فيما فوق الجبين بشريط من الحرير
الابيض ، قد علقت فى ذراعها اليسرى سلة أنيقة من القصب مبطنة بالحرير
الابيض بها مجموعة من الزهور المعدنية الصغيرة الجميلة . كانت تبدو كملاك
ظل سبيله الى السماء .

مدت يدها الرخصة الناعمة الى السلة والتقطت واحدة من تلك الزهورات
وتقدمت منى قائلة فى صوت ساحر رقيق وهى تثبت الزهرة على صدرى :

– ليساعد سيدى أطفال العالم بثلاث فرنكات ،

انها مندوبة احدى الجمعيات الفرنسية التى تهتم برعاية الاطفال كما تؤكد ذلك الشارة التى تحملها على صدرها ، وتذكرت أننا فى السنة العالمية للطفل .

ونقدتها المبلغ فأخذته شاكرة ومضت على ثغرها ترفرف ابتسامة حلوة ، وضاعت فى الزحام . ومضينا نتابع المسير ، وشعرت بالتعب فقلت لصديقى :
- تعال نسترح بأحد المقاهى قليلا .

كانت كل المقاهى مزدحمة ويعسر وجود مقعد خال بها ، وبعد طول بحث عثرنا على مقعدين خاليين بمقهى منعزل بعض الشيء . على مقربة منا كانت تجلس شابة فى العقد الثالث من عمرها رائعة الجمال تضع على عينيها نظارة طبية زادتها جمالا وسحرا ، نظرت اليها ، التقت نظراتى بنظراتها ، ابتسمت لها وحييتها ردت تعيى فى لطف .

قلت لصاحبى وأنا أناوله الزهرة المعدنية بعد ان نزعناها من على صدرى :
- اعطها لها ، سوف تكون جميلة على صدرها بلا شك ،
وسلمها لها قائلا : انها هدية من صديقى اليك .

وتقبلتها شاكرة ، ولاطفتنا بكلمات رقيقة مهذبة وحاولنا ان نجريها الى الحديث معنا .

قال صاحبى :

- انها ليست وحدها على ما يبدو الى جوار كاسها هناك كاس أخرى ما تزال بها بقية من شراب .

- فعلا ، وهذا التحفظ الذى أبدته فى كلامها هنا ألا يدل على شيء ؟

وجاء رفيقها ، وتركنا المقهى ومضينا نعاود السير من جديد ، كنت أشعر بالملل شديدا فى قدمى وبثقل فى كتفى ، لقد قضيت كامل النصف الاول من ذلك اليوم فى السير والتجوال .

وعثرنا على مقعد خال بأحد المقاهى ، وقال صاحبه وهو يمضى الى داخل المقهى :

- اجلس انت يجب ان نحصل على كرسي آخر ،
وعاد بعد قليل حاملا معه كرسيًا .

القيت نظرة على الجالسين من حولنا فلمحت فتاتين تجلسان بمفردهما غير بعيد منا احدهما شقراء هى السحر بعينه والجمال مجسما . والثانية سمراء غلامية الشعر ، جميلة لكنها أقل حسنا من رفيقتها . ورأيت صديقي يتطلع اليها بدوره ، وعندما لاحظنا اهتمامنا بهما مضتا تتبادلان الهمس والابتسام ، وقال صاحبه :

- ما رأيك لو نذهب للجلوس معهما ؟
قلت :

- يجب أن نستأذنهما فى ذلك أولا .

لم يترك الوقت يمر والتفت ناحيتهما وبعد أن حياهما سألهما ان كانتا لا تمانعان فى ان نشاركهما مأثدتهم نظرا لضيق المكان الذى نجلس به ولعدم وجود مائدة أمامنا .

نظرت احدهما الى الاخرى وابتسمتا وبعد أن تبادلتا بعض الكلمات هما قالت السمراء :

- اننا نرحب بوجودكما معنا .

وانتقلنا للجلوس معهما ، وجاء النادل فطلبت منه أن يحضر لى قهوة كذلك فعل صديقي . بينما طلبت كل واحدة من الفتاتين مشروبًا . وشرعنا نتحدث حول الطقس والحرارة غير العادية التى تشهدها باريس فى تلك الايام من شهر أوت . وكان اليوم شديد القيظ ذكرنى بربيع الجنوب فى بلادى .

وسألتنا الغانية الشقراء من نحن ومن أى بلد وإن كنا نزور باريس فى سياحة ، وإن كانت المرة الاولى التى نزورها فيها .. و .. و ..

وقال لها صديقي اننا عرب هو من لبنان وأنا من اليمن الجنوبي قدمنا الى باريس فى سياحة قصيرة وهى أول زيارة لنا اليها ، وأننا من رجال الاعمال وأنه مطلق أما انا فأعزب . وشعرت بانقباض مفاجئ ، ترى لم لم يقل لها الحقيقة ، لم لم يقل لها بأننا من تونس وأنه مقيم بباريس منذ أكثر من عشر سنوات ، وأنه يعمل محاسباً باحد الفنادق السياحية الكبرى ، وأنه يمتلك منزلاً باحدى الضواحي متزوج من فرنسية وله ولد . واتفقنا على الذهاب الى أحد المطاعم للعشاء .

وجاء النادل ونقد ، صاحبي ثمن ما شربناه ،

كان المبلغ يساوى ما يزيد على خمسة دنانير تونسية وهو ما لا يمكن ان يصل الى دينارين فى ارقى الفنادق عندنا .

قالت الشقراء :

.. هل تريد أن نتناول العشاء بمطعم عربى ؟..

نظر الى صديقي ، وسألني رأيي فأبدت له ترحيبى بالفكرة .

وقادتنا دليلتنا الحسنة الى مطعم لبناني أنيق كتب على واجهته بخط عربى جميل «الامير» .

كان ينتشر داخله ضوء أحمر خافت ، به عدد من الرواد أغلبهم من العرب والمسلمين ، ومما لفت نظري وجود بعض النسوة المحجبات كما كانت هناك نسوة سافرات متبرجات يعاقرن الخمر ويتكلمن بأصوات عالية ويضحكن بطريقة خليعة تبعث على الاشمئزاز . ومن احد اركان المطعم كان صوت وديع الصافى ينساب هادئاً عذبا يدغدغ الاسماع وينعش الروح ويحلق بالسامع الى بعيد بعيد فى اجواء جبل لبنان الاخضر .

«على الله تعود على الله يا ضائع فى ديار الله»

استرخيت فى المقعد الوثير وتهدت مع النغم العذب فى رحلة الشوق والحنين .

وقدم خادم المحل وبعد ان حيانا تحية عربية وقف فى أدب فى انتظار طلباتنا وقد أمسك بيده دفترًا وقلمًا .

لم تكن لي ولا لصديقي معرفة بألوان الاطعمة اللبنانية لذلك ناقشت الخادم طويلا بخصوص بعض أصناف الاكل التي ذكرها لنا .

كان شابا ظريفا استلطفته . وارتحت اليه من الوهلة الاولى . وبدأ لي كأنى أعرفه من قبل . ولعل صورته اقترنت في خيالي بصورة شاب يشبهه عرفته في بلادى ، فتبسّطت معه فى الكلام وتبادلت معه بعض المداعبات . وتدخلت الفاتنة الشقراء فى الحديث مستعملة اللغة الفرنسية ، كان واضحا أنها خبيرة بكثير من الاكلات اللبنانية فقد سبق لها أن زارت المحل من قبل فى مناسبات متعددة رفقة بعض الرجال او الاصدقاء حسب تعبيرها كما أخبرتنا هى بذلك فيما بعد ، وطلبت من الخادم ان يحضر لنا بعض الالوان من الاكل ذكرتها له كمقدمات ، فدون ما طلبته منه فى دفتره . وانصرف وبعد حين رجع حاملا الطعام .

شرعنا فى الاكل وبدأ الحديث والسؤال .

وتكلمت اليونانية السمراء فقالت انها تدعى «ريتا» وان اسرتها هاجرت من اليونان الى فرنسا وهى صغيرة السن ، وأنها زارت معظم بلاد العالم ولا تعرف من البلاد العربية غير مصر ، وأخرجت من حقيبتها اليدوية مجموعة من الصور الملونة التقطت لها فى آخر رحلة لها قامت بها الى بعض بلدان المنظومة الاشتراكية . تهوى السفر والرقص وتحب الموسيقى وركوب الخيل ، تزوجت مرة وطلقت ولا تمنع فى الزواج من جديد متى وجدت الرجل المناسب وتفضل ان يكون عربيا . قالت ذلك وابتسمت

ونظر الى صديقي وقال :

— انها تكاد تأكلك بعينها .

وسألتنى زميلتها الشقراء عن اليمن وعن المرأة اليمنية ، وتحدثنا عما يعايناه شعبنا هناك من فقر وتخلف ، وحدثتها عن قيادته الثورية التى تخوض سباقا مع الزمن من أجل اعادة صنع الحياة وبناء الانسان العربى على الارض اليمنية ، لقد سبق لها أن زارت معظم بلاد الخليج وعملت باحد الفنادق السياحية بأبى ضبى ، كما زارت مصر وسوريا . ولبنان والعراق وتركيا وتونس والمغرب ، وهى أعرف منى بتلك البلاد من وطنى الكبير .

وانتقلت للحديث عن النفط وعن سوء تصرف العرب فى هذه الثروة الخيالية ومحاولاتهم فرض ارادتهم على دول العالم باستعمالهم النفط كسلاح اقتصادى وسياسى فى صراعهم الدائر مع اسرائيل التى ينكرون عليها حق الوجود والبقاء .

وجاء خادم المطعم فابتدرته قائلة دون أن تأخذ رأينا :

– هات من كله ...

والتفتت الى ورمتنى بنظرة ناعسة من عينيها الزرقاوين وتابعت تقول :

– هل سبق لك أن شربت العرق اللبنانى ؟

قلت :

– لا ...

واتجهت الى الخادم وقالت له :

– هات كأسا من العرق للمسيو وكأسا لى ..

وتطلع صديقى الى اليونانية السمراء وقال : انه يفضل ان يشرب خمرا .
وسألها أن كانت تقبل مشاركته بعض الكؤوس ، فأومأت برأسها موافقة .

ودون خادم المطعم الطلبات وكأنه اراد ان يتأكد من صحة الكشف الذى لديه قبل ان ينصرف فالتفت الى الفاتنة الشقراء وقال :

– من كله ؟

فاومأت برأسها علامة الايجاب فانصرف مسرعا وهو يردد :

– أوكى ...

وعدنا لمتابعة ما كنا نخوض فيه من حديث حول العرب واسرائيل ، وتكلمت الفاتنة الشقراء عن العرب بلهجة فيها تحمل واضح . واستشعرت من كلامها أنها تكن حقدا دفيناً للعرب . فأحسست بالثورة تعتمل فى أعماقى .

ويسألها صاحبى وقد أثارتها لهجتها العادة هو أيضا ان كانت يهودية ..

اطرقت الغادة الشقراء قليلا ثم قالت ان اسمها «سوزان» وانها فرنسية من اصل بولوني قدمت اسرتها الى فرنسا وهى فى سن الثانية عشرة . والتفت الى وسألتنى فى دلال مصطنع :

– هل تجد فى ما يدل على أننى يهودية ؟

وتهمت فى بحر عينيها الزرقاوين ، وأحسست كأنى اغرق فى أعماقهما السحيقة ووجدتنى اردد دون وعى :

– لست ادرى ..

– لماذا تكرهون اليهود أنتم العرب ؟

وعاتبته رفيقتها فى رفق . ورجتها أن تقلع عن الحديث فى السياسة والا تفسد علينا جو سهرتنا قائلا :

– لقد جئنا الى هنا لقضاء وقت ممتع لا للحديث فى السياسة .

والتفت الى صديقى وسألنى قائلا :

– ما رأيك ؟ <http://Archivebeta.Sakhril.com>

– فى ماذا ؟

– فى الشقراء .

– يبدو انها مهتمة بالسياسة كثيرا وهى على ما اعتقد مغرورة بجمالها ومعتدة بنفسها زيادة على اللزوم . ولا استبعد ان تكون يهودية فعلا فهى متعصبة لليهودية بشكل واضح ، وانا غير متفائل على اية حال . ويظهر اننا لن نوفق معها .

– سنحاول فلا تتعجل الاحداث .

والتفت اليها والى رفيقتها وقال :

– لقد جئنا الى باريس للسياحة والراحة والاستمتاع فهل تقبلان دعوتنا لكما انا وزميلي بقضاء الليلة معنا ؟

ابتسمت «ريتا» وقالت :

- لا مانع عندي شخصيا واعتقد ان صديقتي «سوزان» لا تمنع في ذلك هي ايضا .

واتجهت بنظراتها الى «سوزان» التي ظلت ملازمة الصمت متشاغلة باللعب بعقد من الجواهر الابيض يزين جيدها المرمرى الغنى عن كل عقود الدنيا .

وقال لها صاحبى فى شبه توسل :

- يهمننا ان نعرف رأيك يا آنسة ..

قالت دون أن تتخلص من برودها ..

- اعتقد أنه لا يمكننى ذلك .

قلت :

- لماذا ؟ ..

قالت :

- لعدة أسباب ..

والتفتت اليها زميلتها وتحدثت اليها فى هدوء. محاولة اقناعها بالنحلي عن تردها فتشاغلت عنها بالاكل داعية ايانا للاقتداء بها وشرعت تحدثنا عن الاكل اللبناني وميزاته وخصائصه .

وجاء خادم المطعم حاملا زجاجة خمر وكأسا من العرق . وحين سأله عن الكأس الثانية نظر الى «سوزان» وقال :

- لقد طلبت منى الآنسة احضار كأس واحدة

قلت فى تعجب :

- متى ؟ ..

وتدخلت «سوزان» فى الحديث بعد أن أبعدت فى حركة ارستقراطية رشيقة خصلة الشعر الذهبية عن وجهها :

- لقد طلبت منه ذلك قبل ان ينصرف .

ونظرت الى الخادم وتابعت تقول :

- احضر لى قارورة فيشى صغيرة .

انها تتصرف كأنها هى مضيفتنا أو كأنها سيدة عظيمة ونحن اتباعها .

وعدنا لمتابعة حديث السياسة معها من جديد بينما ركنت زميلتها الى الصمت .

وتناولت كأس العرق وأخذت منه رشفة وأحسست بالنار تشتعل فى حلقى وأمعائى وسرعان ما عمت كامل جسدى الذى أخذ يتصبب عرقا .

نزعمت سترتى وعلقتها بالمشجب وحللت عقدة ربطة عنقى وأهرجت المنديل من جيبى ومضيت أجفف العرق من على وجهى ، كنت اختنق .

وجاء ثلاثة من خدم المطعم يحملون أطباقا كبيرة بكل واحد منها مجموعة من الاطباق كل طبق يحوى لونا من الطعام .

التقت نظراتى بنظرات صديقى فى دهشة وتساؤل :

وسألت الخادم الذى حضر الينا فى البداية وكان احد الثلاثة :

- ما كل هذا الطعام ؟

قال :

- لقد طلبتم من كله . . .

- لست أفهم ! . . .

فنظر الى «سوزان» وقال :

- لقد طلبت الآنسة ان احضر لكم من جميع الاصناف التى يقوم المحل باعدادها .

وقال صديقى متظاهرا باللامبالاة :

- لا بأس . . ضعوا الطعام على المائدة .

ولم تسع المائدة كل الاطباق فاضطروا لاحضار مائدة أخرى .

وقلت فى نفسى : (هذه مكيدة . .)

ووجدتنى أمد يدى الى كأس العرق من جديد .

شرعت «سوزان» فى الاكل وتبعتها «ريتا» وأخذتا تتذوقان من هذا الصنف
وذاك وتطريان هذا اللون حيناً حيناً .

• وأخذتا تلحان علينا فى الاكل .

وعاد صديقى يحاول اقناع «سوزان» بقبول دعوتنا لها ولصديقتها بقضاء
الليلة معنا فى حين مضت هى تراوغ وتتهرب وتختلق الاعذار .

وتكلمت صديقتها فقالت : انه يمكننا قضاء الليلة بشقتها ؛ فهى تقيم وحدها
والشقة كبيرة فيها متسع للجميع .

بعكس «سوزان» التى قد تجد حرجا فى استضافتنا نظرا الى أنها تقيم مع
أمها وأخوتها فهى ليست حرة تماما ، وان كنا نفضل الذهاب الى أحد الفنادق
المحترمة فلا بأس .

ودعتنا «سوزان» لتناول القهوة بمنزلها فقبلنا عرضها أملا فى أن نقنعها
بالاستجابة لطلبنا الاصلى ، لكنها سرعان ما عادت وتراجعت عن موقفها
وسحبت عرضها قائلة : انها ترحب بالاجتماع بنا فى الغد ، وأبدت استعدادها
لاعطائنا رقم الهاتف بالبيت حتى نتصل بها ونحدد معها موعد اللقاء .

وتابعنا النقاش ، واعترفت «سوزان» فى النهاية بأنها يهودية وأن أمها
أخذت عليها موثقا بالآ تمنح جسدها لعربى أو تركى أو زنجى ، وهى غير
مستعدة للاخلال بعهدتها . واحتد بيننا النقاش وحاولت زميلتها التدخل عدة
مرات لتلطيف الجو .

قال صديقى والمرارة تقطر من كلماته :

– لقد سخرت منا الفاجرة .

وكان ما كان وانتهى الامر . ودعا احد الخدم وطلب منه اعداد قائمة بضمن
العشاء .

وخيم علينا صمت قاتل .. وعاد الخادم بعد حين حاملا القائمة فى طبق
صغير من النحاس المزخرف . – 74،520 – ظللت احمق فى الرقم فى شبه
ذهول انه يساوى مرتب موظف عندنا ..

دفع صديقى المبلغ بكل هدوء وبرودة دم مضافا اليه هبة مناسبة لخدم
المطعم تماما كما يفعل اصحاب الملايين .

تركنا المطعم وكان جسمي يتصبب كله عرقا . ورأسي يكاد ينفجر ، وحين أصبحنا في الشارع أحسست بشيء من الراحة عندما داعبت جسمي نسمة ندية منعشة . واقترحت علينا «سوزان» مواصلة السهر بأحد المراقص ، فرفضنا . ووقفنا نتناقش معها في محاولة أخيرة لثنيها عن موقفها الرفض المتصلب . والتفت الى صديقي وقال مداريا غضبه وانفعاله :

– هل يعقل بعد كل ما صرفته وبعد كل المحاولات التي بذلناها للتأثير عليها أن تعبت بنا على هذا النحو ولا نجنى في النهاية غير الخيبة والفشل ؟٠٠٠ ان الامر بالنسبة الى غير مهم فزوجتي في البيت في انتظاري ، أما أنت .. لقد أردت أن أهيء لك سهرة ممتعة ولكن ...

قلت :

– ان قصة صراعي مع المرأة قصة قديمة .

والتفت الى «سوزان» وقال لها في ثورة مكبوتة : انها يهودية عنصرية متعصبة حاقدة .

وغضبت لكلماته ، وعادت الى تهجمها على العرب . وغلت الدماء في عروقي وأحسست بأن الامة العربية بكل ماضيها وتاريخها وأمجادها ونضالاتها تهان في شخصي وشخص صديقي ، وهزتنى موجة عاتية من الاحتقار والكراهية للصهيونية الحسنة ، وهاجمتها بقسوة وعنف مخاطبا فيها كل شعب اسرائيل وشعرت في تلك اللحظة بنخوة وعزة القومية العربية تهز كياني حتى الاعماق .

وانهارت «سوزان» الفتاة الساحرة الشقراء المتعالية ووقفت امامنا ضعيفة ذليلة منكسة الرأس . وتدخلت رفيقتها محاولة تلطيف الجو وتهدئة الحواطر ساعية لايجاد صيغة للتفاهم بيننا وبين رفيقتها ، لكننا كنا قد قررنا تركهما . وكانت السيارة رابضة على قيد خطوات منا ، والساعة تشير الى منتصف الليل .

تركناهما دون أن نودعهما ، وركبنا السيارة ومضينا بعيدا يملؤنا شعور بالعزة والكبرياء والتحدى !!!

محمد الخموسي الحناشي

1979 – 8 – 30

أبى ...

عاد الغرباء إلا أنت

موجوعة ، موجوعة فى كيانى ، داخل كيانى صدرى ، داخل صدرى قلبى ،
داخل قلبى شرايينى ، داخل شرايينى ، دمانى نفرت وولت .

موجوعة فى عيونى ، داخل عيونى تكسرت دموعى ، تكسرت ، وراحت
تجرح وجهى ، تترك عليه شقوقا كبيرة .

موجوعة أنا ، يا أنا ، يا إلهى ، يا دى ، يا نفسى ، يا عالة وجودى ، يا
والدى ، يا قصمة فى ظهري ، وقبضة فى نحري ، يا بحة فى صوتى ، وذبة
فى صدرى ، وغصة فى حلقى ، وصرخة فى فمى ، ورجة فى ضلوعى .

يا أبى يا نحيبا فى يومى ، يا أنينا فى ليلى ، يا كتمة لانفاسى ، يا رعشة
فى جسمى ، يا ريقا ناشقا على شفتى ، يا بهتة فى عيونى وصفرة على وجهى .

بالامس نبشت تربتك ، فهالتنى رائحتك ، وروعتنى أصابعى النابشة
للتراب ، المتصلبة على حجارة أصلب ، أصلب من عنادى من أوجاعى أصلب
من حنينى ، أصلب من حبى من ضمتى اللهفى الى صدرى .

الى صدرى أضمت ، بين ضلوعى احضنك ، هناك أخفيك ، أخفيك عنه ،
أخفيك داخلى داخلى حتى لا يمد يده اليك .

السرطان

مد يده ، تبت يده ، مدها ببطء أطبقها على عنقه ، فانكفا على وجهه ، دب
دبيب النمل فى جسده دب ، سره ، انبرى ، يحطم الحواجز ، يهتك الموانع ،
دب فى جسده ، تلوى ، تكور ، تشعبن ، انحنى ، انعطف ، تمدد ، مال ، دار ،
وداور ، أخذ معه القوة ، امتص الدم ، ذهب بالعافية ، حطم الصحة ، كمن

فى الداخل ، كمن اختفى ، اختفى ترعرع ، اختفى كبر ، اختفى تعلق ، نطح
الرأس فذبلت النظرات ، دفن عروقه فى الارجل فشلت ، كمن السرطان فى
المعدة ، هناك اختفى ، هناك غرس أصابع الفناء ، نشب أظافر الموت ، تحجب ،
تحصن ، هناك كمن .

– نصح الطبيب « لن يخرج السرطان الا بعد العملية الجراحية » .

وبت ليالى أقضم أظافرى ، أكل أصابعى أدور حول نفسى ، وانتظار مقيت
وحالة اغماء شديدة ، وغشاوة بيضاء تحجب النظرات ، وصفرة شديدة تكسو
الجسد ،

و ، تدلل ، انعطف ، مال ، استمال .

و ، تدلل ، مال ، مايل ، تلوى ، تلوى السرطان ، مال القوام الرشيق !!!

« غصن بين » ، تلوى ، غصن بين تلوى كلما حركه مشرط تمكن !

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

الفراء

قصتنا بسيطة تحدث كل يوم ، تبدأ بالدموع ، وتنتهى بالحمى ، تبدأ
بصرخة ، وتنتهى بصرخة ، ولكن شتان ، بين الصرخة الاولى والثانية ،
الصرخة الاولى استقبال الحياة ، أجل نستقبلها بالدموع ، والثانية تنتهى
بالحمى ، حمى الفراق ، حمى اللاعودة واللاجوع ، واللقاء .

هذا الهزال ، وهذا الخوف ، هذا الاصفرار ، وهذا الرعب ، هذا الغثيان ،
وهذا الضيق ، هذا البحث وهذا اللهاث ، أنت ، أنت يا والدى ، تمشى الى
النهاية وأنا متشبثة بك .

بين يدي كان الجسد ، والروح والدفء ، ، ويوما بعد يوم ، فنى الجسد
وخف حمل الروح ، وسكن الدفء ، وكلما اشتد الهزال ، كلما أطبقت أصابعى
حول جسدك ، فلا أنت بمجيب ، دوما تغفو وتتركنى ، ولا أنا بصابرة ..

كنت أحيانا أتركك ، للبحث ، للبحث عن فراء يكسوك ، يقيك ازورار
سبتمبر ونفاق أكتوبر ، وغدر نوفمبر ، وعناد الايام ، ورعونة الاشهر ،
وقسوة المستقبل ،

قلت لى ذات مرة : لا تتأخرى اليوم عودى بسرعة .
وسقطت دمة حزينة على خدك ،

- أبى ، أبى مالك ، عهدتك قويا ، عهدتك كبيرا ، عهدك نظيفا ، عهدتك
شريفًا .

- الاولى راحت ، والثانية حضرت ، والثالثة أراك فيها ، والرابعة اجعلها

- أبى دموعك توجعنى ، لن أخرج اليوم .

- اذهبى ، ستجديننى فى انتظارك .

ARCHIVE

الاثنين

خرجت مع جمع من الصيادين ، الكل فى هرج ومرج ، الكل ، باحث ، باحث
عن أى شىء يقتل ، أى شىء يفرغ فيه نار بندقيته ، أنا وحدى ، أبحث ،
أبحث عن فراء لوالدى ليقيه ، ازورار سبتمبر ، ونفاق أكتوبر ، وغدر
نوفمبر .

الثلاثاء

بندقيتى على كتفى ، تثقلنى ، أوهامى ، تثقلنى ، تشل حركتى ، فكلما
صعدت قمة أحسست برغبة فى النزول ، وكلما نزلت شعرت بميل شديد
للععود ، والصيد الثمين ، صعب المنال ، قلت لمرافقى :

- أالصيد معركة صعبة ،

- انها الحياة ،

- كيف ، ؟

- انها اندحار الضعفاء ، أمام الاقوياء ، نحن نملك السلاح ، بأيدينا الموت والحيوانات ، لا شيء ...
- أنا لا أريد أن أقتل .
- ولا أنا ،
- ولكن أبى فى حاجة الى الفراء . وهذا الفراء لن أحصل عليه الا اذا ا قتلت فحياة أبى أثمن .
- وأنا ، أنا مهنتى الصيد ، منها تعيش عيالى ،
- قلت أعزى نفسى وأعزيه ...
- اذن نحن نبحث عن الحياة ، كل واحد منا يبحث عن الحياة .

الاربعاء

- أبى الصيد معركة مخيفة ،
- أبى أنا أكره ان أقتل ، أنا خاف ، أخاف من الموت يا أبى ، انه رهيب رهيب رهيب ،
- أبى ، ، الصيادون قتلة ، قتلة يا أبى ،
- رأيت صغار العصافير تموت ،
- رأيت ضعاف النورس تداس
- رأيت الحمام يقوم ثم يسقط ،
- رأيت فراخ البط ، تقتل ، تسلخ ، تشوى ، رائحة الشواء ، تلتصق بأطرافى .
- تظهرت ولكن رائحة الشواء ، عالقة دوما بأطرافى .

الخميس

- رائحة نتنه خارجة من المكان ، هياكل بشرية تأكل اللحم النتن ، كل شيء فيه رائحة الجيفة ، حتى الجيفة ابتلعته الافواه ، فالجيفة تسكن الجيفة ، جيفة متحركة وجيفة ساكنة ، واحدة حاكمة ، والاخرى محكوم عليها .

أبى أنت ساكن ، لا تتحرك ، أنا وحدى أهول من نافذة الى أخرى تركت
 معركة الصيد ، لاقف وجها لوجه أمام الموت .
 أطبق الرعب على صدرى ، فانطلق صوتى ..
 « لا .. لا أريد »

قلت انك ستنتظرنى ، ستنظر الفراء ، كنت خائفة يا أبى ، خائفة ولكن
 هذه المرة لا ، سأقتل من أجلك ، من أجلك سأقتل ، سأصعد على الاشلاء
 سأعفس على الدم ، كى تبقى ،
 - ابقا يا والدى أنا بحاجة اليك ، أبى ، أبى .
 « ربت الطبيب على ظهرى » ، - دعيه انه بخير ، -

الجمعة

- شمس مشرقة ، ووجه والدى عليه هالة من نور
 - ربي انعمت فزد -
 على وجه والدى اشراق الحياة ، ما أجمل الحياة !
 أبى يتحرك ، يتحرك ، كالاطفال الصغار ،

كالاطفال والدى ، ذلك الجدار الكبير ، ذلك الرجل الذى كنت أراه دوما
 كبيرا كبيرا أصبح يتحرك كالاطفال ،

ولكن ، لا يهم ، لا يهم ، عديا أبى الى طور الطفولة ، لا يهم ، سوف أعلمك
 السير من جديد ، سوف أبدأ معك الطريق من جديد ، ومن جديد سوف تكتمل
 ولتأكل الحياة ما شاء لها أن تأكل من جسدك ، فرب ضارة نافعة .

قال مرافقى : « سوف تجتهدين اليوم » .
 - أجل ، أنا بحاجة ماسة الى الفراء ،
 - سوف أساعدك عليه ، وبذلك نكون أجرنا معا .

- تفسير الاجرام ، اجتهد ، لا أعتقد أنني أجزم عندما أحصل على فراء لاكسو به والدى ،
- منطق جديد •
- ظروف

السبت

- بتنا الليل نحرس نمرا كبيرا. وكنا مجموعة كبيرة أيضا، ودام الصراع طويلا ، وكان صباحا مشهودا • كانت معركة ضارية ، وتشتتنا ، كل يجرى فى اتجاه ، وخيل الينا أننا حاصرناه ، وانطلق الرصاص ، من كل صوب ، وفجأة أحسست بحرارة غير عادية فى جسدى ، وبعرق بارد يثلج ظهري ، ورائحة نتنة تملأ المكان ، ودم مقيت يقطر من يدي •

وصرخت ، كانت صرخة غيظ ، أفلت النمر ، وأنا التى سفك دمها ،

وبت ليلي بين الانين والالوجاع ، رأيت أحلاما مزعجة ، رأيت أيضا والدى يحمل على الاعناق ، فقلت فى نفسى ، لعله أصبح وزيرا ، أو قائدا أو أميرا ، وفى ذلك الظرف ، وقد استخف بى الطرب ، قلت لوالدى ، الآن تستطيع أن تشتري الفراء الذى يليق بالوزراء والقواد والامراء ،

الاحد ••

لشدا ما يؤلمنى جرحى ،

لشدا ما تقزرنى رائحة الدم على ثيابى ، ومع ذلك رأيت أن أذهب لأزور والدى فى المستشفى واعتدت له ، سوف لن أقول له انى عجزت ، ولكن سأواصل ، أجل سأواصل ، وسوف أحكى له ، حلمى العجيب أيضا ، وسوف نضحك معا ،

انطلقت كالسهم ، وعند النافذة وقفت ، ولكن ،

صرخت أين ، أين الذى كان يرقد هنا ، «وعاودتنى الرؤيا» ، لا •• لا •• مستحيل ••

وقال لي الطبيب المباشر من الداخل : -

- ليرحمه الله يا بنتي ،

وصرخت ، صرخت من كل مجامع جسدي ، وانحدرت رويدا ، رويدا ،
حتى لامست الارض ، وصراخي لا ينقطع ، ثم وجدتني أمشي على قوائم الاربعة
وأنا أعوى كالكلب العقور .

غدر نوفمبر ! غدر نوفمبر ! ،،،

ضمة ميت

ضمت الجسد البارد الى بشدة ، بشدة ، بشدة ، صدقوني ، حتى اليوم
في صدري رجفة ، رجفة باردة ، لا أدري لماذا أحسست أن ذلك الجسد لم يعد
ملكى ، انه ملك تلك القوة الكبيرة الكبيرة ، « الله » ،

الفرق بين الميت والحي ، هو أننا نحن ، نحضن الحي ، وأما الميت فيحضنه
الله ،

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

حتى نلتقى

يومها أحسست أنني أحب كل الناس ، أنا لا أعرف الكره ، ولكن يومها
شعرت أنني بحاجة الى الناس لاحتمى بهم من خوفى الشديد ، الشديد الشديد ،
الوف من الفناء وكل شيء تم بسرعة سرعة هائلة . ولم يبق منك يا
والدى ، الا الدموع ذكراك باتت دمعة ، أجل الرجل الهائل القوى بقى دمعة ،
ولكن أنا ، أنا حتى اليوم أبحث عنك من خلال تلك الدمعة ، أبحث عنك فى
وجوه الناس ووجوههم مقاطع حجرية ، أرى العينين فى وجه أحدهم ، والانف
فى وجه آخر ، والجبين عند أخى ، والشعر عند أخى الثانى ، ولكن مجموع
هذه الاوصاف ، ذهبت معك ، دفنت تحت الارض معك .،

أتدري يا والدى ، عندما عانقتك ، وعانقتك وأنت مسجى ، اكتشفت أننا
لا نختلف فى شيء ، فقط ، أنا أعرق ، وجسدك نشف الى الابد ، الحياة يا
والدى هى الدف . أجل الدف ، الذى يعيش معنا ، وبه نحيا . . الحياة حب ،

رمزها دمة صادقة تميز الانسان عن الحيوان ، نظرة ضعيف الى فوق ، الى فوق الى ربى .. الحياة حب ، حب لكل الناس ،، الحياة هى النظرة الصافية الهادئة ، لهذا الذى يعطى ، ويعطى بسخاء . ولكن ، نحن نجهل قيمة هذا السخاء . انا لا نعرفه الا من خلال النهش والنش كالجمادين ، أجل ، العالم مجنون ، مجنون ويساق الى الجنون ، الابيض يضطهد الاسود ، والاسود يبول دما لكى ينتقم من الابيض ، الكبير يأكل ، والصغير يؤكل ، العربى يصرخ ، واليهودى ينق ، والقنابل توزع الموت ، والقادة تهدى الفناء تبيعه بلا شىء ، بغضبة ، أجل غضبة واحدة تذهب بالعديد من الابرياء .

أبى عاد المسافر والضال . والسجين ،،،

نشر الفلك قلاعه فطار المسافر الى أهله ..

انبرى الضال بين الحشد ، يراجع الوجوه يبحث عن الام والزوجة والابن والصديق .

حطم السجين من حوله الاغلال وأقسم يمين التوبة

وعاد يجمع الشمل ..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وأنت !!

أنت يا أمسى ، يا طفولتى يا صباى ، أين أنت ؟؟

هل تذكر كم جرتنى وراءك وأنا طفلة، ثم كبرت، وكبر عنادى، ومشاكساتى فاذا خطواتى تثبت ، وأصبحنا نتسابق ، نتسابق ونضحك ، ثم ، صرت أتركك ورائى . أجل كنت أتركك ورائى ، وبعدها ، جاء دورى كنت أجرجرك ورائى ، وها أنك فجأة تقف ، وبدون سابق انذار والآن ، الآن أمشى وحدى ، فطريقنا اختلفت ، فلا أنت تعرفنى ولا أنا أستطيع أن ألقاك ، ومع ذلك أنتظرك ، أنتظرك يا والدى أنتظرك ليلا بجانب النافذة المواجهة للبوابة الحديدية ونهارا أرقب باب المقبرة قد تخرج يوما وتعود فتضع يدك على كتفى ، ونمضى ..

نتيلة التباينة

نوفمبر 1981

التنقيب عن النفس

ليس من المعقول أن يعيش المرء على هامش سيرته والجانب المفقود من حياته ، وافتقار الانسان الى ربط الاشياء فى حياته كافتقاره للنور ، ومنطق الاشياء يفرض ذلك ...

هل من المعقول أن أغتصب ما فقد فى أسرع وقت ، ودون تفكير فى العاقبة أكثر من ذلك سوء الظن ، جائز أن يقع إنسان فى فخ ما . لكن ليس من الجائز أن يتكرر ذلك .. وصاحبى من أولئك الذين استحوذ عليهم الشك بصورة مهولة ...

اهتم أول الامر بجمع ذكرياته العديدة حلوها ومرها ، وحين قام بعملية إحصائية - كما يقولون - رأى أن المرء فى حياته كثير ، وأن حلوها لا يعد بالأصابع ، عندها قرر أن يضطلع بمهمة التنقيب عن النفس عله يدرك أبعاد هذا الحوض ... ثم عاوده الظن من جديد ، وانتبه الى أن الحاسبة التى كان يتولى بها جمع الارقام وطرحها كانت غير مدركة لحساباته ، فطغح الكيل ، وتخلف العقل الحاسب والضابط وارتكبت الهفوات ، فتضاعف حجم النتائج ..!

- الاوراق مبعثرة هنا وهناك .. بها أرقام خيالية ، ما خيلتها ؟
- لقد هرول الرقم خوفاً من العقل الباطنى ، إنى أعرف ذلك ...
- إذن . سقطت النتائج فى قاع المجهول ..
- لا .. وإنما دخلت فى حلبة اللعبة التى نمارسها جميعا بلا استثناء ...

.. قال المدير لكاتبتة - بعد أن تجملت وارتدت أحسن ما لديها من لباس فرنسى ، واستتوت ضاحكة : - إن الامر يتعلق بقوة قاهرة صدمت الحاسبة .. اكتبى برقية عاجلة لفريق الفنيين حتى يقدموا لمعالجتها فى الحين .. إنها آلة عجيبة جدا ، كثيرة التصدع ، لا أعرف ما سرها ، حتى الذين أرسلناهم للخارج للتربص فاتهم الامر ولم يعد لديهم من المعلومات عنها الشئ الكثير .. أو لعلهم أخذوا القليل من الفن .

ثم هرول المدير فى أرجاء مكتبه الواسع ، ونظر فى المرأة المنتصبية أمامه ، واستوى يعدل ربطة عنقه ، ويتأمل عقارب الساعة الحائطية المذهبة ، وقال لتوه مخاطباً كاتبته :

- أسرعى بإرسال برقية أخرى لمكتب السفرات قصد حجز التذاكر بالطائرة الاولى المقلعة نحو سويسرا ، لا تتأخرى ، اجمعى بحقيبتك كل التقارير التى سنبحثها هناك عن المؤسسة ، عن تطور قسم الاحتساب بها ، وحتى عن عطب الآلة العجيبة ...

عادت الكاتبة الى صميم الموضوع :

- ألا ترى من الصالح أن يسافر معنا خبير الشركة الذى سدّدنا عنه مبالغ كبيرة أثناء تربصه فى الخارج حتى يتمكن من معرفة أسباب العطب بصورة فنية أكثر ..

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- إنها ثروة مذهشة ... كيف .. أيسافر معنا هذا الجاهل بالامر ، لا .. لا .. فالامر قد تجاوزه ...

والتفت إليها وهى واقفة أمامه تترقب تعليماته :

- كم أنت جمية . كثيرا ما تؤثرين أمر المؤسسة فى دماغك الحائر ، لا عليك ، فالمختصون فى أمرها ليسوا هنا بيننا ، سترين كم نحن مدينون لهؤلاء الأفذاذ ..

سكتت المسكينة، بينما خرج المدير متعثرا يلعن خبير الشركة الذى لايهتدي الى إصلاح الحاسبة .. فدماغها معطب من شهر تقريبا ، والامور متوقفة ، وإزاحة الرواسب عملية ميدانية لا يقرها السيد المدير ، فهناك أمور يهتم بها مع كاتبته فقط ، والباقي عليه أن يتضرع لله .

سحب نفسا من سيجارته الغليظة ، وكان يتأمل بعض الفقرات فى تقرير رفعه اليه أحد خبراء المؤسسة عن أعمال التنقيب عن النفط فى الصحراء ، الى أن فاض غضبه وخاطب الكاتبة :

- حررى مذكرة فى فصل هذا الحبير الشقي عن العمل ، فقا عانت منه المؤسسة الكثير ..

ثم عاد يرتب أمور السفر ، وفى رأسه هالة أخرى ، كبير العمال يثقله بطلباته ، انتابته الحيرة ، فالامر خطير ، إنه يعرف المدير وأجهزته المنبثة فى المؤسسة ، قواده نصبهم ، يطمئن الى اخبارهم الملققة ، فكشر الحصام فى الشركة وعانت العناء العسير ، فاستعصى على المدير إيجاد مخرج للامر ... نادى كاتبته ليستشيرها ، فعرضت عليه فكرة توقيفه هو الآخر ، فاستحسنها ، لكنه صارحها بوفرة المسارب أمام العملة ، والوقت ليس فى صالحه ...

غاص فى الحيرة لعنقه ، حتى أقدم عليه كبير « القوادة » مدعيا بأن رئيس العمال قد كسر أنابيب المياه فى حقول الشركة ، فجرفت مياه الوادى الكبير ما اعترضها من شجيرات حتى أنت على الماعز والأغنام .. فما كان من المدير الا أن صدقه وأمر بإيقافه ...

ترك المدير المؤسسة وطار الى سويسرا مع كاتبته ، حين هدأت نفسه ، واستقرت حالته بعض الشئ ، بينما توقف العمل واضطربت الاحوال . أما سى الطاهر كبير العمال فقد اجتمع بأقرانه حاثا إياهم على ضرورة التصدى للامر ، فقد افترس المدير الشركة كالثعبان .. « ... آش يأكل ها الحيوان يحط رهطه ... كرشو كبيره . »

وكان الطاهر من أخلص العمال للمؤسسة ، إلا أنه كان كثير التردد لأعمال المدير وجماعته فى غير إجحاف ، وهو مقتنع بأنه يمارس مداعبة معه ، فهل الامر بسيط لهذا الحد :

- كيف ترضون بالدون أيها الاخوان .. إن السيد المدير قد ضاعف الحقد نحوى ونحوكم ، وتجاه الشركة ..

- سنرفع الامر للنقابة .. والحكومة عازمة على فضح المستترين ..

- النقابة ، الحكومة .. لا عليك يا رجل . فالاوراق مبعثرة والناس لا يسدون عين الشمس بالغربال !..

- كيف يذهب هذا الرجل للخارج المزار العديدة ، من أين له المال حتى يصير كبساط الريح أو السندباد البحري ..

- سنبحث الامر مع النقابة والحكومة !..

عاد التنقيب عن النفس من جديد . وأسرع فريق من الخبراء لتحليل التربة ، والكل يشغل من وقع المفاجأة ، كان الفريق قد انقسم الى قسمين ، الاول يتناول الابحاث العلمية ، والآخر مع العمال يهتم بترتيب أعمال التنقيب ، . ولم يخطر ببال سى الطاهر أن يعود من جديد الى الحظيرة، وصورة زوجته المريضة لا تفارق خياله ، وهو يعد الثروة للغير ، الا أنه وجد فى حبه وانشغاله بأمر زوجته ما يسليه ويفتت هموم ... وتظل مريضة ، وفى رأسه مرض أكبر من مرضها إن حله يتبدد كلما عن له الوصول الى الشاطئ لماذا لا يتعصب .. خياله بعد عضلاته ، فالتنقيب لم يعد يفرز سوى الضياع ... وبين حوشه الحقيقير يتراعى الفراغ والظلام .. كل شئ بات من الذكريات المعادة ، قال له الطبيب ذات يوم : ما معنى أنك تواجه مرض زوجتك بصبر وأمام جدار من الصمت .. كلنا يواجه ذلك ، فما دمت تؤدي خدمة ما فساعة المرض تأتي على غير عاداتها .. كن عاقلا يا سى الطاهر ، فالدنيا هكذا معوجة ولو بانك لك أنها استقامت ذات مرة ، فهي تخدعك .. واصل عملية التنقيب عن النفس .. واصل ... واصل ، فالامر يدعو الى الحجل !..

يحيى محمد

وقفه مع قصص الحناشى

قرأت سبع قصص اتحفتنا بها مجلة (قصص) للكاتب الاديب محمد الحموسى الحناشى . ولقد كان للكاتب شخصية أدبية واضحة ومتميزة من حيث الشكل والمضمون . وهذه تدل بوضوح على ابداع واصالة من جهة ، وعلى فهم صحيح للمجتمع وللموضوعات التى يطرحها الكاتب عبر نتاجه الادبى من جهة أخرى .

فالحناشى يقدم لنا فى واقعية نماذج اجتماعية تعاني من مشاكل متعددة . هذه الواقعية كانت لها نكهة خاصة يمكن ان أسميها بالواقعية العربية ، وأكاد أخص الريفية منها لولا انه تطرق عبر قصصه لمجتمع مدنى .

والحق ان الحناشى قدم لنا بواقعية عربية متصلة بالمجتمع أشد الاتصال وماتزمة بالانسان الطيب التزاما واضحا ، هذه الواقعية نحن بحاجة اليها لانها تصور المجتمع بروح ابن المجتمع المخلص ، فيكون نقدها للعيوب الاجتماعية صحيحا وتكون معالجتها مفيدة . فقد سئمتنا من الواقعية التى تلتصق بمجتمعنا لصقا وتصنع نماذج اجتماعية غريبة عن مجتمعنا روحا قريبة منه شكلا ، فكثيرا ما نرى ابطال اعمال ادبية عربية يلبسون الزى الشعبى الخاص ، ثم نرى المؤلف يطلب منهم ان يكونوا نسخة عن بطل من ابطال روايات وقصص غير عربية ، وتلك هى النسخة المعربة للبطل .

ولا شك هنا بأن للطبيعة الانسانية صفات مشتركة ، ولكن لا بد ان تكون لكل مجتمع نماذجه الخاصة ، وابطاله المتميزون بتفكيرهم وتصرفاتهم أولا ، وبمعاشهم وردائهم ثانيا ، والا فما معنى الواقعية ان لم تكن كذلك ؟

بأسلوب هادى وبسيط يعرض علينا الحناشى قصصه القصيرة مستخدما لغة سهلة مناسبة ، والحق ان عددا من قصصه تصلح لان تكون مشروع رواية أو قصة مطولة ، فالقارئ يحس بنوع من الحذف لكثير من الحوادث ، أو تكثيف

لحوادث أخرى . وإذا كان المؤلف يريد من هذه (الروايات القصيرة) قصصها
 ليتسنى لأكبر عدد من القراء قراءتها ، فإنه مطالب بالحاح ان يكتب رواية
 طويلة من جديد فهو يملك كل مقومات الكتابة الروائية فنا وموضوعا ولغة ،
 وما أحسب ان الخناشي يبخل على الادب العربي بعطاء سخي من هذا النوع .
 وأتوقع أن تأخذ روايته المستقبلية نوعا من العالمية وما ذاك ببعيد المنال ، على
 على اننا نرى جل قصصه تنتهى نهاية مأساوية مؤلمة ، هذه النهاية كانت
 أحيانا عقوبة طبيعية لمن يعصى عن التماس الحقيقة ، ولا يفكر فيما هو فاعله أو
 مقدم عليه ، ولا يترك الحرية سوى لنوازعه كى تتحكم فيه ، كقصتي (التلميذة
 والاستاذ) و (الوهم القاتل) فالاستاذ فى الاولى لم يترك لهيبته مكانة ، ولم
 يتصرف بعقله أبدا ، والزوج فى الثانية لم يترك لزوجته فرصة للدفاع عن
 نفسها ولم يصارحها .

وكانت - أى النهاية - مظهرة لقسوة المجتمع فى قصص أخرى (المتشرد)
 و (الضحية) و (الشهادة) .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وكانت فى قصص أخرى نتيجة الاقدار التى عصفت بامرأة طيبة ودمرت
 عماد بيتها أولا (زوجها) وحرقت بيتها الذى فيه طفلها ثانيا ، فصارت
 (مخبولة) كما جاء فى عنوان القصة .

وأما القصة السابعة (يوم جديد) فقد كانت النهاية بموت البطل شهيدا
 ومن مجتمعنا العربى الاسلامى يعتبر الشهادة مأساة ؟؟ لكنها - أى النهاية -
 صعبة على القارىء وصعبة على من يعيش مثل هذه النهاية رؤية بطل قال آخر
 كلمة (انى أموت لتحياوا ، لتحيا بلادى) .

ولقد كانت هذه النهايات المأساوية ذروة الابداع الفنى فى قصصه ، انها
 دعوة الى تجاوز السلبيات فى مجتمعنا ، هذه السلبيات التى تحيل حياة

الكثير منا الى مأس (باستثناء يوم جديد والمخبولة) اللتين كانت نهايتهما من صنع القدر .

والشيء اللافت للانتباه حقا في قصصه انه لم يركز الاضواء على النساء أكثر من الرجال بل كانت قصصه اجتماعية دون تفريق ، وهذه من النادر ان نجد في القصص العربية الواقعية حيث اننا نجد كبار الكتاب الواقعيين العرب يحاولون الدفاع عن مخطئة أو منحرفة أو محترفة في النوادي الليلية ويعتبرونها مظلومة ومحقة في فعلها في آن معا ، وهم في محاولاتهم تلك يحطون من قيمة المرأة في مجتمعنا ويقللون من مكانتها الرفيعة ، والحق ان الحناشي كانت له ثقة بالنساء تستحق تقديره .

ان الحناشي في قصصه قد كان شاهدا على عصره الذي عاش فيه ، ولقد نقل لنا بأمانة عاداتنا الاجتماعية دون تزييف ، ولم يضعنا في دوامة من التفكير والاستنتاج عندما اختار أسلوب البساطة في سرده وتعبيره ولغته .

<http://Archivebeta.Sakhrir.com>

محمد كرزون

- حلب -

محمد الهادي بن صالح

قرار في رواية

واحة بلا ظل (1)

يرى البعض ان الرواية التونسية لها وجودها ككل الروايات العربية لكن القارىء هو المفقود . ويرى البعض الآخر عكس هذا الرأي : وان القارىء موجود لكن الرواية التونسية هي المفقودة . والشطط في كلا الحكمين واضح . فالرواية التونسية لها وجودها قطعاً . ولكنه بمقدار قد لا يفي حتى بحاجة انطلاقات المدرسية اذا علمنا ان المدارس - حتى هذا اليوم - تعتبر أهم مستهلك للانتاج الروائي التونسي . وكذلك القارىء لا شك في وجوده ولكنه قارىء غير عادى ما دام حماسه للمطالعة وليد دوافع وجوبية أو مهنية . وبانقضاء الحاجة يهمل الكتاب اطلاقاً ، فانهدام الارادة هو انعدام القارىء .

وصدور رواية تونسية جديدة لم يعد حدثاً في حد ذاته مثلما كان الشأن في بداية الستينات . لم يعد أكثر من إضافة حجر في بناء الهيكل الروائي التونسي العام . وفي هذا الاطار الزمنى صدرت رواية « واحة بلا ظل » للاستاذ عمر بن سالم .

فألكاتب من الشباب التونسي المثقف . نظيف في خلقه ونظيف في أدبه لذلك أرى انه نظيف في تفكيره . فهو لا يخادع ولا يضيف على نفسه صفة تجعله محط شك وريبة ، فانشغاله الاصلى هو البحث أو الكتابة العلمية إذ إنه باحث بمركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية ولكنه يمارس الكتابة الادبية فيجد فيها متنفساً وراحة .

لما تناولت روايته لم يكن بإمكانى أن أتصور أنه بإمكان عمر بن سالم أن يتخلص من الجو الاسطوري الذي انغلق داخله وان كان يحاول تصوير واقع

(I) واحة بلا ظل . رواية لعمر بن سالم . نشر شركة صفاء للنشر والتوزيع والصحافة (الثمن : 500، Id) .

من خلال ملابسات وظروف مشابهة لظروف هذه الكتابات المتسمة بمسحة
مثنوية . ذلك ان القارئ يطالب عادة من الكاتب ما تعود به خاصة اذا
كان هذا القارئ يحمل فكرة مسبقة عن انتاج الكاتب واهتماماته . ولهذا
تسلحت بارادة قوية وحماس مفرط وعزيمة فياضة متهينا لرحلة عويصة عبر
المعابد والآثار التاريخية . واكتشفت خطئي في البدء . وأقول ان العجب قد
هزنى وأنا أوصل قراءتى ورحلتى الممتعة عبر مسافات الرواية .

فأحداثها تنطلق من محطة سفر . وهذا صالح يودع العاصمة قاصدا قرينته
بالجنوب التونسي متيقنا بأن هذه العودة الى مسقط رأسه لا تشابه سابقتها.
فقد انتهى تلك السنة تعليمه الفلاحى وسيصبح فى عداد الموظفين . وصالح
ككل طالب ريفى يتعاطف مع محيطه تشده الى اهل القرية احاسيس
متناقضة . تلك الاحاسيس التى تنشأ لدى المجموعات البشرية القليلة العدد
عادة . فهو يحن الى أهله ، الى أصدقائه والى (... شاطئ البلدة حيث ولد حبه
وترعرع ...) . وقصة حبه هذه مع جميلة بنت حامد الربيعى قد تكون نقطة
ضعف فى الرواية . فكثيرا ما تتجلى مواقفها كرتق فى ثوب جديد . ويصل
صالح الى قرينته بعد رحلة يستعرض اثناءها شذرات من ذكرياته واهتماماته
واهتمامات محيطه فى السياسة فى الاجتماع وفى الإقتصاد . وتنتهى فترات
الترحيب والتسليم والفرحة بالعودة فتتحسس العائلة بلهفة آفاق مستقبله
وتستدرج نواياه فتسأله أخته : (.. أين ستوظف . ومتى تبدأ العمل ؟ وهل
طلبت الجهة ؟) ويستنشق صالح مرتاحا نسمات القرية وأخبارها فيلاحظ من
خلال أقوالهم الحسرة على نقص حاصل فى الموارد المائية المعدة للري وتدهور
حالة الفلاحة مما دفع بالكثيرين الممارسين للأعمال الفلاحية الى المهججرة الى
مواطن بعيدة فيغدقون أموالهم على أهله وذويهم فيسألهم حائرا :

ـ لماذا تركوا الفلاحة وهجروا ؟

ـ تركوا الفلاحة ! بل قل تركوا الفقر . فالحوالات الآن تصل الى أهلهم فى
كل شهر دون انقطاع ..

وتروج فى القرية - اثر تدهور حالة الفلاحة اشاعات مفادها أن الحكومة
عازمة - إزاء هذا التدهور - على إقامة تعاضدية إنتاج فلاحى فكان معارضو

هذه الفكرة أكثر من مؤيديها . ذلك انهم يعتقدون أنها محاولة لمحو الملكية الفردية التي أقرتها كل النظم البشرية والسماوية . وازاء هذه الاشاعات تمتد يد التخريب (...) وعرض عليه الحضار بعد رد التحية كوبا من (اللافي) فقال مطريا بضاعته :

- انه شهر « لمسية » لم يمض على قتلها غير اسبوع .

ورد عليه صالح متعجبا :

- كيف ؟ أقتل لمسية من أجل اللافي . وعراجينها مثقلة . وصابتها مضمونة ؟

- لقد قيل لنا ان النخيل سيقطع فبدأنا نقتل حتى اللمسيات . المهم ان تكون الجبارة حلوبا .

- ومن قال ان النخيل سيقطع؟

- ألم تسمع بخبر التعاضدية التي يريدون تكوينها في الواحة ؟

ويلتقي صالح بالمعتمد فيرى هذا الأخير فيه ضالته المنشودة ويبادر بالاسراع في تنشيط المشروع ما دام قد ظفر بمن هو أهل للإشراف عليه . والمشروع ما هو الا نتيجة حتمية لانقاذ الوضع الفلاحي المتدهور . وبعد تردد يقبل صالح الإشراف على هذا المشروع باقتناع لما يرى فيه من فائدة للقرية . وينغمس في العمل بحماس بعد أن ذللوا كل العراقيل التي وقفت حاجزا لمنع تكوين التعاضدية . ورغم هذه الحواجز فقد أقيمت تعاضدية إنتاج وانهمك صالح في العمل كامل الوقت وقد (...) أخذت مسؤوليات الإشراف على الأشغال في التعاضدية من صالح كل وقته (...) والحماس وحده لا يكفي . والنية الطيبة وحدها لا تكفي . وكانت الحواجز عديدة والهفوات عديدة . وكانت أسباب الفشل أوفر من أسباب النجاح . ولما رفضت الاعتمادات المالية المزمع منحها للتعاضدية كانت النكسة .

وتنتهي الرواية بموقف وداع صالح وسفره (...) أشار اليهم عبر النافذة بيد واهية ... وغابت آبنية القرية عن نظر الفتى . واكتنفته الواحة . كانت

الجدوع تمر عبر الزجاج المواجه سراعاً كأنها النبال تغرز في عينيه ، ولما لاح له البراح زفر زفرة كادت تكشف عن غمه المكبوت ...) .

هذا هو الخط الرئيسى للرواية ولا أتصور أنه ملخص لها لايمانى أن الرواية ليست احدى الاحاكي التى يرويها الكاتب . وإنما الرواية جملة القول فى الشخصوص والاحداث وارتباطها بالزمان والمكان . وايمانى أن الرواية هى العلاقات القائمة بين جميع هذه العناصر التى يبرزها الشكل ، فالعالم الروائى عالم متضارب متشابك يخضع لنظام متفاوت القوى والمنافع، فانطلاقاً من هذه المواقف الحياتية الواقعية البسيطة أمكن لعمر بن سالم بناء روايته بصيغة سردية . هذه الصيغة السردية المسطحة أضفت عليها حركية مكثفة ونسقا سريعاً على مستوى الحدث مما يجبر القارىء على مسايرتها فى أسلوبها السهل المباشر الخالى من العقد والتعقيد دون ملل أو كلال ودون أن يترك له أيضاً فرصة للتفكير أو التأمل .

وحول شخصية واحدة « صالح » تدور علاقات بقية المجموعة . وصالح اذا تأملناه كشخصية قصصية لا نجد فيها من المغريات البطولية ما يجعلها تصدر حدث الرواية ، فهى شخصية عادية بسيطة متداولة فى كل التجمعات القروية قد وفق المؤلف الى اختيارها . فصالح ولد لم يظهر عليه من الصلاح ما يشجع والده على إقرائه القرآن ، فدفع به الى المدارس فجرفته هذه حيث شاءت دون أن يدرك أهله لوجهته غرضاً أو لمستقبله تفصيلاً ، فهو لا يخاف والده إمام القرية وصاحب السلطة الروحية فيها . فهو مستقل بأفكاره عكس أخيه عبد الحفيظ أو أخته فارحة . وتكون صيغة التقابل هنا مع أخته سعاد التلميذة المدرسية هى الاخرى . كانى بالمؤلف يحاول إثبات انقسام هيكل العائلة وكانى به يحاول إثبات النشاز القائم بين عقلية القدامى أو من سلك سلكهم وعقلية المتعلمين الذين يرون أن المعلومات المعاصرة لقادرة بأن تعظيم وجهة تنضاءل فى حضرتها كل السلط الادبية والروحية . فالعائلة فى فترة تحول أبرزه الكتب فى مواقف حوارية أو سردية . وكانت له مواقف يحس فيها الشيخ بتقلص سلطانه إزاء هذا الطالب الناجح وربما إزاء التلميذة الناجحة أيضاً . وصالح يحظى باحترام الجميع داخل البيت وخارجه وهو محط ثقتهم واعتزازهم (... النجاح فى الجيب هذه السنة أيضاً ...) فهو يحاول دوماً أن يوفق بين اهتماماته الشخصية وما تقتضيه المصلحة العامة . لذلك نراه

يقترح تعيين حامد الربيعي رئيساً على إحدى الحضائر التي ستفتح في التعاضدية . فالاختيار موفق أولاً في الرجل من حماس وكفاءة وثانياً لأنه صاحب السلطة على جميلة البنت التي أحبها . فالمجموعة متكاملة تدور حول هذه الشخصية كما أشرت . تتضارب مصالحها مثلما تتكامل في إطار بيئي وإطار زمني محدود . وهذه الشخصيات برزت كلها قائمة وقد طغى عليها الاستقرار وهيمن عايتها الزمن الآتي . وهذا البناء لشخصيات الرواية حتم الظرف الزمني القصير وفرض هذه التقريرية الجوفاء .

أما الحوار فقد ورد باغة تحاول التوفيق بين العامية المحلية والعربية الفصحى . ولا أخال الكاتب قد وفق إلى إخضاع هذه اللغة وإعطائها قوة وجزالة الحوار باللغة العربية الفصحى أو العامية المحلية . والامثلة منتشرة على كامل ساحة الرواية .

- انه قد ابطأ اليوم . لقد ذهب إلى السانينة هذا الصباح وتأخر في الرجوع . لعاه يسقى .

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

- لا تحسدوا من اعطاه الله .
- سوف تعطيهم حجر الوادي !
- ما هي قصة الاخذ هذه ؟
- العين عندهم كالنادي بل قل كالمقهى .
- هل شرب الحمار ..

فهذه الصيغ الحوارية كلها صيغ عامية كتبت بالفاظ عربية فصحى . كان الاولى ان تكتب بالعامية ولا يكون لها ضرر ولا مس بجوهر الرواية إن لم يخدم الرواية .

ورغم اعتماد الرواية شخصية واحدة مفردة وشخصية أخرى جماعية فالرواية تصنف في إطار روايات الموقف . والموقف واضح .

هذه ملامح نص روائي نحن بحاجة إلى مثله أقدمه معتزاً . وننتظر من مؤلفه العطاء الكثير .

محمد الهادي بن صالح

حكاية الخوف

حدثتني جدتي قالت : « يحكى ان رجلا لم يستطع فراقا لزوجته بعد موتها صدفة وبدون سابق اعلام » فقلت : ومن يعلم بتاريخ موته ؟ قالت : هذا ما قاله الزوج يا ولدى لشعوره بأن حياته بعد موت زوجته لا تستحق أن تعاش ...

قلت : أظنه قد جن بعد ذلك ؟ قالت وهى تبتسم : لا تتهكم على أجدادك يا ولدى واسمع الحكاية كلها .

بعد موت زوجته هجر الناس وأصبح يقضى النهار فى العمل ومن ذلك على ذكريات زواجه أما فى الليل فقد كان يذهب الى المقبرة لينام على قبر زوجته فقلت بعدة : حتى وهى ميتة يريد أن يلقي أتعاب يومه عليها ! قالت جدتي : لا تحكم على ما كان يقع من وجهة نظرك الآن فالعالم يتغير فى كل يوم . قلت : أولا يخاف من الموتى ؟ قالت : « الخوف كل الخوف من الاحياء يا ولدى أما الموتى فانهم تحت التراب ولا يستطيعون أن يفعلوا شيئا عدا تسميد الارض . فقلت : وماذا تركوا فالارض كل حياتنا . قالت : تركوا استغلال الشجرة للاحياء قلت : انك أول جدة مثقفة أراها . وارتميت فى عنقها أشبعها تقبيلًا قالت وهى تشكرنى وتربت على كتفى كل الجدات تقريبا مثقفات لكن تبقى القيمة فى فهم ما يقلنه وكيفية صياغته . مثلاً : أنا الآن أتكلم باللهجة العامية وانى على يقين من أنك تكتب ما أقصه عليك بالعربية الفصحى التى لا أجيدها قلت . صدقت يا جدتي . ولكن كيف عرفت ذلك ؟ قالت ألم أقل لك : الخوف كل الخوف من الاحياء وما أنت منهم .

دعنى أكمل لك الحكاية الآن : فى الليلة السابعة من نومه على قبر زوجته سمع من يقول له بينما كان يغط فى نوم عميق : انهض من مكانك وعد الى منزلك فالمقبرة لا تريد ان ينام فيها غير الموتى ...

نهض الرجل من نومه مذعورا . نظر الى يمينه فلم ير غير الجمود . نظر الى شماله فلم يسمع غير الصمت . زاد خوف الرجل . هذا كلام يسمع بدون

متكلمين ... ربما كنت أحلم ؟ أو ربما لم أسمع شيئا ولا حلمت ...
ربما ...

عاد الرجل الى نومه ثانية وهو يلعن الشيطان الذى أذهب عنه نومه قلت :
مساكين هم الشياطين . أكل ما يقلقنا من عمل الشيطان ؟ قالت جدتى على
هذا اعتاد الناس يا ولدى . ثم ما الذى اقلقك من ذلك ؟ قلت شعور بالعطف
مع اخوتنا الشياطين . قالت : أرفض اخوتهم . قلت لسنا مخيرين حتى
نرفض .

قالت . دعنى أكمل حديثى الآن . عاد الرجل الى نومه ثانية وهو يلعن
الشيطان الذى أذهب عنه نومه . وقبل أن يستسلم نهائيا الى النوم سمع
صوتا يقول له . انهض من مكانك ، وعد الى منزلك . فالمقبرة لا تريد ان ينام
فيها غير الموتى ...

ذعر الرجل أكثر من المرة الاولى لقد سمع الصوت وهو لا يزال مستيقظا .
انتفض من مكانه ثم وقف وهو يقول : لكن من أنتم ؟

لم يسمع الرجل جوابا لسؤاله . ازداد خوفه أكثر . نظر الى يمينه وفرائضه
ترتعد . فلم ير غير الجمود . نظر الى شماله فاذا الصمت يخيم على المكان « من
المتكلم يا ترى ؟ ... ولماذا يطردنى من المقبرة ... انها المكان الوحيد الذى هو
ملك لكل بشر ... اى لاي كان ... أى ملك الجميع ... ملك ... ملك ...
تملكنى الخوف كثيرا ... لا ... لا ... غير صحيح ... ومم أخاف ؟ ...
الخوف جبن ... وأنا أكره الجبن ... »

فى تلك الاثناء وعندما كان يسأل نفسه أهو خائف أم لا ؟ سمع الصوت
يدوى فى الارحاء . انهض من مكانك . وعد الى منزلك فالمقبرة لا تريد أن ينام
فيها غير الموتى ... اننا نرفض الغرباء ...

ذهب توازن الرجل وهو يسمع بكل حواسه فلم يبد حراكا . تعقد لسانه
عن الكلام ، ارتعدت فرائضه أكثر . أصبح يرتعش . لم يعد هناك مجال
للسك . انه خائف باعترافه . وليس أمامه من مخرج سوى الهروب من هذا
المكان الآهل بسكانه ، المقفر من الاحياء .

نهض الرجل من مكانه ورجلاه ترتعشان محاولا المشى وقبل ان يكمل ثالث خطواته سمع جلبة قوية تقع بالقرب منه . تسمر مكانه . اشتد خفقان قلبه ونظر حوله فاذا هى شجرة لوز شامخة فى الفضاء تضلل قبر زوجته ؛ قد نبتت فى ذات المكان الذى كان نائما فيه .

« ... غير صحيح ... لا أصدق ... ماذا يجرى ؟ أنا فى حلم أم يقظة ؟ لكن هل أكذب ما تراه عيناي ... ربما كانت هذه آخر لحظات حياتي ... لكن ما الذى أتى بى الى المقبرة وأنا لا أزال حيا أرزق ؟ صحيح أننى قد جننت ... أكل هذا حب لزوجتى ! على من أنا أكذب ... ؟ اننى لا أستطيع الحراك ... ربما مسكنى أحد الاموات فلم أستطع أن أسير ... المهم هو أن أهرب الآن ... لكن كيف يكون ذلك ؟ اننى لم أعد أستطيع حتى التفكير فى كيفية الهرب ... »

هكذا اذا اشتد خوف الرجل مما رأى . واشتد ارتبأكه فبقى ينظر الى شجرة اللوز فى ذهول .

انطلق الرجل من مكانه كالسهم ... أو هكذا خيل اليه . وحين اشرف على باب المقبرة . اعترضت طريقة فتاة بديعة الحسن والجمال وقد تزينت بأحلى وأفخر متاع الزينة ...

اكفهر وجه الرجل مما رأى . اشتد نشييح صدره فسقط على الارض مغشيا عليه .

قلت : لكن ما الذى اسمع يا جدتى حقيقة ام خيال ؟

قالت : لتعلم يا ولدى اولا ان فى الخيال جزءا كبيرا من الحقيقة أما ثانيًا فكل ما حكته وما سأحكيه هو ما وقع .

سقط الرجل على الارض مغشيا عليه . لا يدري بالتحديد كم غاب عن الوجود لكنه حين أفاق سمع الصوت يعيد له : انهض من مكانك وعد الى منزلك فالمقبرة لا نريد ان ينام فيها غير الموتى ...

«... لو أحمدا انفاسى الآن لقبلت شرط أن يتنحى هذا الخوف من صدرى ...» هكذا قال الرجل فى نفسه بعد أن سمع الصوت فتح عينيه ثانية بعد أن أغلقهما خوفا من الصوت لكنه سرعان ما أغلقهما مرة أخرى ... وفتحهما ثم أغلقهما ... انه خائف ... انه خائف ولا يستطيع فتح عينيه ...

أغمض الرجل عينيه عل الخوف يذهب عنه . فى تلك الاثناء شعر برطوبة تمسح وجهه . عفوا بشئ، أرطب ، انه لم يعد يفقه ما يقول .

قلت : أراك يا جدتى ملمة بكل أطراف الحكاية .

قالت : ربما كان فى ذلك شأن يا ولدى ..

قلت : وما هو هذا الشأن ؟

قالت : لا تتعجل فستعرفه مع الايام . دعنى أكمل الآن .

أحس الرجل بشئ، رطب يمر على وجهه . اقشعر بدنه . ارتعدت فرائصه أكثر فانطوى على نفسه . أغمض عينيه عل الخوف ينتهى . والآن وحين لمسه ماذا سيفعل ؟ أكل هذا من أجل أن ينام حذو زوجته التى لم يستطيع لها فراقا ؟ وهل صحيح انه يحبها الى هذه الدرجة ؟ ... ربما ...

«... الخلاص الوحيد من هذا الخوف ، الهرب ...» هكذا قرر لكن كيف سيهرب انه لا يستطيع حراكا من شدة الخوف فهذه بديعة الحسن والجمال تمرر كفها على خده وهى توسده ركبته . وهذا الصوت يعيد الكلام بانتظام انهض من مكانك . وعد الى منزلك . فالمقبرة لا تريد ان ينام فيها غير الموتى ... وهذه شجرة اللوز التى نبتت فى ذات المكان الذى كان نائما فيه حذو قبر زوجته ... ان تذكرها فقط يزيد من شدة الخوف ...

سد سمعه من أمر الصوت له بالانصراف . فانهض من مكانه بغتة . وانتفض واقفا ثم انطلق نحو الباب يجرى وهو يقول : أتركونى أخرج الآن وأعدكم بعدم العودة الى هذا المكان ثانية ...

عندها وقبل ان يصل الباب بقليل سمع صوت قهقهة خلفه حتى خال كل الموتى قد أصبحوا يضحكون . لكن ماذا هناك يضحك ؟

اننى أعدهم وعدا صادقا بعدم العودة ثانية فما الذى يضحك ؟

- رفع رأسه قليلا ليتبين موضع الباب فزاد ذهوله . ماذا يرى ؟ انس هذا أم جان . انه لم يعد يفقه شيئا سوى شدة خوفه . كان فى الباب فارس وقد تغطى كامل جسده بأغصان الزيتون أما نبضات صدره فكانت عش حمام . . . انه لا يتبين ما يراه جيدا فربما كان خاطئا . رفع رأسه ثانية فاذا الفارس يشير اليه بالعودة . لم يعد هناك مجال للشك لكن ماذا سيفعل أمام هذا الامر الموجه اليه من الفارس ؟

قلت : لقد وصل الشاى يا جدتى .

قالت : هكذا هو دائما لا يحضر الا متأخرا

بعد أن ترشفت الشاى قليلا قالت : فكر الشاب فى كيفية الخلاص مما هو فيه بقاب مرتعد . وفرائض ترتعش . ليس هناك من منفذ سوى الهرب .

جمع الرجل كل قواه ثم نظر الى الطريق واطلق العنان لرجليه ، ليس هناك حل سواه . وجرى . . . جرى . . . ثم جرى . . . حتى خارت قواه وكثر لهائمه . نظر وراءه يقيس المسافة التى قطعها فسقط فى مكانه وهو لم يبتعد عن المقبرة الا بنحو متر تقريبا .

انتفضت من فراشى مذعورة وانا اسمع لهيئت جدك وايقظته من نومه فلعن الشيطان وحكى لى ما كان يحلم قلت : اذا فقد كان ما قلته حام جدى ؟..

يوسف عبد العاطى

II أوت 1981

مطارات قصصية

من أصدقاء مجلة « قصص » وقرائها الاستاذ محمد سعيد كردي من الرياض بالمملكة العربية السعودية . وكانت رسالته - وما تزال إن شاء الله - زهرات فواحة عبقة في بريد مجلة « قصص » . وإنه ليسعدنا أن نشبت فيما يلي فقرات وخواطر حول القصة عن رسالة بعث بها الى رئيس التحرير .

مع تحيات أسرة تحرير مجلة « قصص »

تكاد القصص القصيرة ، والاقاصيص تنهب وقتي ، وتسرق فراغي ، وتسلب النوم من عيني فأنا قارئ لها صباحا مساء ولا أمل تلاوتها أقدم على قراءتها بلهفة الجائع ، وظمأ العطشان ، ومستطعما لمذاقها مستنشقا لرائحتها المميزة . هذا لا يمنعني من دراسة هندسة القصة ، وتخطيطها ، وتكنية بنائها ، والاعمدة التي ينهض عليها البناء ، والركائز التي تستند عليها اركان القصة والملاط الذي بسببه يشتد البناء وتتماسك الاركان مثل :

- العقدة ، والصراع ، والحل الناشئ من الصراع .

البداية المشوقة ، والوسط ازدياد في قوة الدفع ، والنهاية القوية ، ولحظات التنوير التي تمنحنا الفتنة لاحداث القصة وما سيكون من سرد مما يجعل الفرد يمص شفثيه من حلاوة التزوق .

الرد على الاسئلة التي تثيرها كتابة القصة :

- 1 - أين - المكان .
- 2 - متى - الزمان .
- 3 - كيف - الحدث أو الاحداث .

4 - لماذا - مبررات الحدث .

5 - ماذا - النهاية .

القصة القصيرة من أكثر فنون الادب شيوعا يقول عنها د. رشاد رشدي :
- « القصة القصيرة ليست مجرد كلام يسجل في صفحات قلائل بل هي لون من ألوان الادب المعاصر له خصائص ومميزات شكلية معينة » .
ويحدثنا الاستاذ حسين تبانى نقلا عن الكاتب الانجليزى و. ج. ويلز :

« .. إن القصة القصيرة هي حكاية تجمع بين الحقيقة والخيال . ويمكن قراءتها فى فترة زمنية تتراوح بين ربع ساعة وثلاثة أرباع الساعة : وأن تكون على جانب من التشويق والامتناع ، ولا يهم أن تكون خفيفة ، أو دسمة انسانية أو غير انسانية زاخرة بالافكار والآراء التى تجعلك تفكر كثيرا بعد قراءتها .. المهم أن تربط القارئ لمدة تتراوح بين ربع ساعة ، أو خمسين دقيقة ، ربطا يشير فيه الشعور بالمتعة والرضى .. » .

وعنها يقول الكاتب القصصى الاستاذ يوسف الشارونى :

- « الفرق بين القصة القصيرة والرواية فرق فى الشكل والمضمون وعملية البناء .

الرواية يمكن أن يكون لها تسلسل زمنى ويمكن التلاعب بهذا الترتيب كما فى حالة الفلاش باك وذلك بحكم ان الرواية تفرق للحياة فى شمولها . أما القصة القصيرة فهى نقطة يتلاشى فيها الحاضر ، الماضى ، والمستقبل .

الرواية اذن - كما يقال - تصوير من المنبع الى المصب أما القصة القصيرة فتصوير دوامة واحدة على سطح النهر وقطاع واحد من مجتمع أو أحداث تدور فى شقة واحدة من عمارة كبيرة تتكون من خمسين شقة » .

وعن الاقصوصة يتحدث الكاتب ترنتويل ميسيون وايت فيقول :

- « الاقصوصة من أشد أنواع الادب القصصى صعوبة فى اتقانه . انها تتطلب صيغة من نوع راق إضافة الى قابلية فى الابتكار .. لا تجيدها حتى تتقن تكنيك القصة القصيرة » .

وهناك كتاب بارزون تحدثوا عن :

- ميكانيك الاقصوصة . وعناصرها ، ورسم الشخصيات بها .

من وجهة نظري ان القصة القصيرة سهلة الهضم الفكرى فهي أشبه ما تكون بوجبة غذاء خفيف - سندوتش - ركزت بها كل أنواع الفيتامينات بشكل مكثف من الممكن التهامه فى حافلة ، أو محطة انتظار تحرك القطار ، أو فرصة تناول فنجان قهوة فى مقصف شاعرى أو فى فترة ترتيب مائدة الغذاء . الرواية تحتاج لوقت طويل لقراءتها يوم أو يومان أو أكثر. وفى حالة استرخاء ونحن فى عصر السرعة لنصعود للكواكب لا وقت لدينا هى أنسب للشيوخ ، والمحالين للتقاعد من كبار السن وفى اردل الفجر ، والعاطلون بالوراثة .

أنا شارب ولست بجالب . وان كان لى بعض الادرار فى فترات زمنية متباعدة . إدرار قد لا يستساغ طعمه لم يذقه أحد لا أعرف مستوى تروقه ودرجة ملوحة من حلالاته .

القراء هم زبائن الكاتب القصصى ، يكثرون بجودته ويتلاشون بضعف وعدم إتقان صنعته . أنا أيس لى زبون واحد لعدم الثقة فى عرض بضاعتى الفاسدة .

خائف وفزع من النشر باسمى الصريح حتى لا يأتى ما أكتبه دون المستوى فأكون بذلك مضغة ومحل تقدر لدى رؤساء التحرير .

ثلاثون سنة عاشق لهذا اللون الادبى الصارخ قد تكون فترة زمنية أطول من عشق مجنون ليلي ، وجميل بثينة. لا تستغرب من هيامى أجد فى قراءة القصة القصيرة بعض الراحة لما يشورنى من ألام الحياة وعناء الابداء . وتسجيل الذكريات جميلة فيها زحم القصة ولونها ورصد لمتطلبات وجدانية تعثرت بها أو وقعت فيها وطرف وحكايات لاصدقاء غير أرضيين صاحبى البعض منهم شرقا وغربا ركبوا على الطائرات ، وامتطوا السكك الحديد والسيارات . شخصية واحدة شاهدت معى هونولولو . واستراح فى هاواى ، وصعد على برج طوكيو وفى أحد متاحفها انفلت منى وبقي هناك .

البشير خريف

اليوم والأمس



ملف خاص أعده محمد الهادي بن صالح

بمناسبة حفل التكريم الذي أقيم للأخ البشير خريف

بالحمائم

تكريم البشير خريف

فيما بين 20 و 21 فيفري 1982 وقع تكريم الاستاذ البشير خريف بالمركز الثقافي الدولي بالحمامات . وقد اتسمت هذه التظاهرة الثقافية باقامة معرض شخصي لهذا الروائي ، ضم بعض الصور الشخصية وبعض مخطوطات لم يقع استغلالها ونشرها وبعض الصحف القديمة التي ساهم في تحريرها من ذلك أننا قرأنا في صحيفة حنبعل أنه أهمل الى حين كتابة مسرحيته «بن سديرة» ثم مؤلفات الاديب وبعض التراجم لبعض كتبه أو الموجودة في بعض كتب الانطولوجيات . الى جانب هذا المعرض وقعت ندوة حول الكاتب وأدبه ساهم فيها عدد كبير من الباحثين والدارسين .

افتتح الندوة الاستاذ محمد رشاد الحمزاوي مدير المركز الثقافي الدولي فرحب بالحاضرين مستعرضا نشاط المركز الثقافي الدولي بصفة عامة ثم تطرق الى البشير خريف ومنزلته في الادب التونسي خاصة والادب العربي عامة ، ثم أحال الكلمة الى الاستاذ البشير خريف الرجل المحافظ المتحفظ فأشار الى تحرجه من مثل هذه الدعوة . لكن الاستاذ الحمزاوي شجعه على ذلك مشيرا عليه بالحضور فقط والاستماع . ولهذا فلم تعد له من تعلقة لتغيبه أو لرفضه الدعوة . وهذا - كما أشرت - راجع الى طبيعة هذا الكاتب الذي لم يتعود أساليب الخطابة كما أشار هو الى لك في كلمته الموجزة فهو : «... رجل وحده ، أتكلم مع نفسي فأبادل واياها الهواجس والافكار والاحلام وقد يذهب بي الحوار فأخذ القلم وأكتب » .

مثل هذا الكاتب (الاصيل) في بلد آخر يكون له شأن آخر . فالبشير خريف لم ينزل منزلته الحقيقية . فهو أكبر من أن يكون ذلك الكاتب المغفور الذي صدرت له ثلاث روايات ومجموعة قصصية ثم انتهى . وإن كان أكثر الكتاب في تونس حضورا في كتب البحث والدراسات وإن كان أكثر الكتاب التونسيين حظا في الترجمة والانطولوجيات ؛ فبعض آثاره قد ترجمت الى لغات عدة كالاسبانية والفرنسية والروسية . وهذا الكاتب له أثره في واقعنا

القصصى أردنا ذلك أم كرهنا ولا أدل على ذلك من رسالة الوفاء التى بعث بها السيد وزير الثقافة الى الكاتب وقرأت فى الندوة ومما جاء فيها: «...فانى أقولها للتاريخ اننى بدأت أكتب القصة بعد أن قرأت قصتكم الاولى والثانية وبعد أن نبذت تلك الفكرة التى سادت فى الادب التونسى والقائلة بأن حياة الناس فى تونس غير جديرة بأن تكتب وتكون مادة للادب والخلق » .

وشخصية البشير خريف فى حد ذاتها شخصية صالحة لكى تكون مادة للبحث والدراسة قد نكتشفها ذات يوم وقد نكتشف ذات يوم أننا فرطنا فى حقها . وقد نكتشف ذات يوم جوانب مضيئة من إبداعه الفنى فى أدبه المتين، وقد نكتشف ذات يوم أن هذا الكاتب قد عاش فى عصر غير عصره وكان من المفروض أن يخلق بعد مائة أو مائتين من السنين مستقبلا .

ولعل أهم عائق يقف دون اكتشاف الكاتب وأدبه النظام التربوى وحقيقته المعتمدة أساسا على سلامة اللغة وخطر العامية على الفصحى . وهذا النظام لا يتماشى ونظرية خريف الراضية للذى يجوز وما لا يجوز أو ما هو صالح وما هو غير صالح . نحن ما زلنا نعلم أطلقنا كيف يقرؤون وكيف يكتبون ولا نعلمهم كيف يفكرون . وهذا المنطق المهزوم أساسا يتواصل فى حلقاته مع التكوين الذاتى للطفل فتنشأ عنده فكرة الاحتراز والانكماش ويكون بذلك مجموعة من العقد والتعقيدات . وما يكون مصير مجتمع مكبوت مأزوم فى علاقاته .

والبشير خريف أنشودة الحرية كما وصفه الاستاذ بكار . وأدبه دعوة صارخة للتحرر من كل العقد ولا يفرق مطلقا بين حرية « برث الليل » وحرية « العطاء » ولا حرية اللغة ولا التحرر من أشكال وقوالب أدبية جاهزة.

ولعله الكاتب العربى الوحيد الذى قلت صلته بالغرب والشرق كما جاء فى رأى الاستاذ الحمزاوى رغم اطلاعه الواسع على الادب العالمى مثلما أشار الى ذلك الحكيم محمود بلعيد .

ولعل الجانب الذى بدأ يأخذ مساره فى دراسة أدب البشير خريف هو الجانب اللغوى . ولهذا الكاتب صولات وجولات فى هذا الميدان . ألم يكتب ذات يوم خطر الفصحى على العربية ؟ . أو لم يكتب قصة بكاملها لتدعيم رأيه وتوضيح وجه البشاعة وإجلاء واقع قد تعامى عنه دعاة ارتبطت مصالحهم (الحبزنية) بسلامة اللغة . ما قيمة « أوليسيس » لجوس لولا آفاق دبلن المحلية . ما قيمة عرس الزين لولا محليتها الضيقة . ما قيمة أدب ويلم فوكنر لولا انعكاس وجه الجنوب الضيق فيه . ورغم هذا فالبشير خريف يسيطر سيطرة مطلقة على لغته الفصحى وهو ما يلاحظ فى كتاباته سلامة الجملة وخلوها من الأخطاء مع جزالة اللفظ وقوة المعنى إضافة الى إحكام البناء وحدائة ومعاصرة فى التركيب .

أدب مثل أدب هذا الكاتب لا يمكن له أن يمر فى سكيننة دون جلبلة أو ضجيج .

ملخص لدراسات الندوة

ملاحظة : المصدرة إن كنت أسأت الفهم

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

استهل الندوة الاستاذ آدم فتحي بدراسة « المضمون بين السلفية والحداثة فى أدب البشير خريف » . وهذه الدراسة من الدراسات الجادة التى ما زال الادب التونسى يفتقر إليها . الدراسة اقتصرت على رواية « الدئلة فى عراجينها » فىرى آدم أن عملية قراءة الاثر الفنى من المنظور الحديث للنقد ما هى الا عملية هدم لاعادة البناء . والنقد ليس تعرية النص بقدر ما هو اعادة كتابة النص اعتمادا على ان النص الحديث لا يمكن أن يقرأ قراءة واحدة . ورواية « الدئلة فى عراجينها » لا تخضع لهذه العملية . ذلك انها لا تتعدى أن تكون وثيقة تاريخية وشهادة اجتماعية (لا تقرأ ولكنها تستقرأ) أرادها الكاتب حافظة لصيغات لغوية وعادات فلكلورية خوفا من التلف . وهذه الفكرة فكرة سلفية لرسالة الكاتب . ويرى آدم أن الكاتب (أى البشير خريف) لا ينظر واقعه نظرة معاصرة . فشخصه قد ارتبطوا بمواقفهم . لا تتعدى أن تكون تعبيرا لنظرة سلفية موروثة لبنية اجتماعية تهيم عليها اديولوجية متأكلة للدين والحكم من ذلك اعتماد الكاتب منهج سلامة الرأى

الذى يؤدى حتما الى شرعية القيادة . فهذه العلاقات كانت محورا سلفيا . ذلك التفكير الذى انحصر بين المفكر والسلطان أو بين سيد ومسود . ويرى أن حركية الشخصوس ورمزيتها وتوظيف هذا الرمز من العناصر الايجابية فى الرواية والموظفة توظيفا حديثا فى المفهوم الادبى المعاصر .

★ ★ ★

ثم أحييت الكلمة للاستاذ رياض المرزوقى ليلقى السؤال : « هل برث الليل رواية تاريخية ؟ » .

هذه الدراسة شبه مرتجلة ولكن حذق الباحث ودرايته بأساليب الالتقاء جعلتنا نشعر أو نحس بأن المرزوقى يسرد علينا بحثا مكتوبا .

لقد طرح المرزوقى قضية الشكل الفنى فى الرواية التونسية . والرواية التاريخية نوع من الادب ظهر فى الادب الرومنسى واشتد عوده فى أواخر القرن التاسع عشر . وقد عرف الادب العربى هذا اللون مع جورجى زيدان وكرم ملحم كرم . وكانت الغاية من هذه الرواية غاية تعليمية قبل أن يكون البحث فيها عن ايجاد صيغة فنية . فالرجوع الى تاريخ حنين الى ماضى مجيد افتقد أراد به جورجى زيدان اذكاء جذوة النخوة فى نفوس فئة مهاجرة . وقد عرف الادب التونسى هذا اللون عند محمد الحبيب فى رواية بسالة تركية أو عند زين العابدين السنوسى فى أميرة الجم . لكن هذا اللون قد تلاشى بعد الحرب العالمية الثانية .

الجديد فى رواية برث الليل ان المؤلف خرج بأثره عن الحيط المعتاد لهذا اللون من الرواية وابتعد عن التاريخ الرسمى ليتناول الطبقات الشعبية ، فاننا لم نكن نصادف فى الرواية التاريخية الا ، الامير الذى عشق أميرة أو الملكة التى عشقت أميرا . وحتى وان صادف ان كان هذا المعشوق من عامة الناس فاننا نكتشف فى آخر الامر انه سيد وابن سيد .

وان التقى البشير خريف فى كثير من النقاط مع الكلاسيكيين فان النظرة المجددة واللحمة الطريفة نجدها فى كثير من الشواهد . فالبشير خريف لم يرفض اطلاقا الشكل القديم فاننا نجده يوظف الكثير من عناصر الرواية الكلاسيكية المعتادة منها : النزعة التعليمية التى لم تختف ثم الاماكن ووصف

الملابس والاحداث التاريخية الكبرى والنزعة الوطنية الصرفة والنفس الملحمي وتلاحم التاريخ مع النسيج القصصى كلها عناصر من رواسب الشكل القديم.

الى جانب القصة التاريخية فاننا نصادف عادة قصة غرامية بعراقيلها ووشاتها وظروفها الاجتماعية القاسية ومحاولة بطلها للتغلب عليها ولكن هذه القصة فى برث الليل تأخذ ابعادا جديدة مثل توظيف الرمز . فما الحسنة الا وجه الحرية الذى ابتسم لهذا العبد ولما كاد أن يحصل عليها غربت عنه . وما العشق والغرام الا للحرية والمساواة . هذه القضايا مطروحة بشكل حاد فى أثر البشير خريف .

فى برث الليل عناصر من الرواية التاريخية الكلاسيكية ولكنها رواية متطورة وبذلك كانت فتحة فى الكتابة القصصية فى تونس .

★ ★ ★

الاستاذ توفيق بكار ارتجل محاضرة « معنى الحرية فى أدب البشير خريف » يرى الاستاذ ان الادب أنشودة الحرية . الادب صراع مع الواقع . الادب حركة الانسان وحركة الانسان أن يخلق . والفن خلق لمزيد من الحرية. حرية الانسان بنصفه . وكان الادب أنشودة واحدة فى تونس ردها الطاهر الحداد مرورا بالمسعدى والدعاجي وكان لها البشير خريف نغمة فريدة مميزة وامتدادا ومعاصرة . هذه النغمة الفريدة المخضمة قامت جسرا بين جيلين . كتب البشير خريف عن ماضى بغيض مشحون وذكرة اجتماعية تجرى فى شرايينها وخلاياها أحداث القرن السادس عشر ودخول الاسبان الى تونس الى عصر الدبنجق وأواخر العشرينيات الى عصر الصادق فى أواخر الثلاثينيات.

قد تختلف أحوال البيئة وقد تختلف أحوال الزمن ولكن القضية واحدة فى كل ما كتب البشير خريف . فقضية التخلص من العبوديات فى اشكالها المختلفة وألوانها كانت المحور الثابت من برث الليل الى المجموعات الكادحة المضطهدة الى المرأة المغلوبة على أمرها . فقصة برث الليل قصة مسار عبد كان فى وطنه يعيش طليقا حرا فى السباسب والغابات يرتع مع الضباء فيقتنصه تجار العبيد كما تقتنص الحيوانات . أسروه وأذلوه واستعبدوه . ويصور البشير خريف هذا الامر لمجموعة لها احساسها وتاريخها وانسانيتها ولا عيب فيها الا أن لونها أسود . ويواصل برث الليل حياته كما أرادوها له

أو كما أرادتها ظروفه . يتطور وضعه فجأة من وضع العبد الى وضع الانسان لما رأى ذات يوم وجه الحسناء . فى ابتسامتها انعكست الى العبد صورة انسانيته . وفى وجه هذا العبد اكتشفت الحسناء ذاتها كما اكتشفت العطاء وضعها فى صورة المرأة المومس لما هرب القطار تاركا زوجها وراءه . ووضع العطاء لا يختلف عن وضع الحسناء فى برث الليل كما لا يختلف عن وضع خليفة لقرع أو وضع صلوحة الارملة . وكما كان اشمئزاز الطاهر الحداد من وضع المرأة وكان صرخة فى وجه التحجر والجمود كان البشير خريف صوتا مدويا داعيا لهذه الحرية . وأثر الحداد فى أدب خريف واضح :

والبشير خريف لا يعالج القضايا الهامة بأسلوب متزمت رصين بل يعالجها بأسلوب مرح كانت فيه السخرية طاغية . هذه السخرية كنا نفتقدناها فى أدبنا العربى فى طرح القضايا الهامة . والسخرية لدى خريف لا تقتصر على موضوع دون آخر فهى تصادفنا فى عبودية برث الليل وابتسامة الحسناء الى لحظات متعة العطاء الى جدية الدبجق .

وصيغة الحرية عند البشير خريف تتجاوز المفهوم الاخلاقى المتواتر فى أدبه الى مواضيع أبعد ما تكون عن الاخلاق والتاريخ الاجتماعى للمجموعات . تتجاوز هذا المفهوم الى حرية الكلمة أو حرية التعبير وحرية الاختيار . وقد تعرض البشير خريف الى قضية سلامة اللغة التى طرحت فى فيفري 1970 بنادى أبي القاسم الشابى لا بمقال أدبى بل بقصة محفظة السمار :

— ها أنا ذا ! لم يقض علي الشتاء . فهلم للحياة يا أهل الحياة . وهنا يعلق الكاتب بسخريته المعهودة الى ان « الطيور تتكلم الفصحى » . فى هذه القصة كتب خريف حوارا بالعامية التونسية وترجمه بالفصحى أو كتبه بالفصحى وأعاد بالعامية أو انه يتناول تعبيرا فيشير الى انه لم يجد له بديلا فى العربية الفصحى وبذلك يورد العبارة العامية ويكتفى بالتعليق مثل « اجبد عليه » . هذا ما يؤكد لنا أن الكاتب يتمتع بذوق لغوى أصيل . وكما كانت الاشارة : فان الكاتب كان أنشودة الحرية حرية الاخلاق وحرية الكلمة . وخريف قد يصح فيه نعت الاستاذ المنجى الشملى « ثائر هادى » فهو الاديب الذى حاول أن يعطى وجهها ناصعا لأدبه بصياغة فنية بلا اسفاف ولا مبالغة .

هذا هو البشير خريف وجرائمه التى اقترفها ضد الاخلاق وضد اللغة .

أما الاستاذ الحمزاوي فقد تناول بالدرس « أدب البشير خريف في الذهنية الادبية السائدة » .

عرف الاستاذ الحمزاوي الذهنية الادبية قائلا : هي تلك الصورة الحاصلة بالسماع أو بالقياس عن الادب عموما .

وهذه الذهنية السمعية قد حصرت في نطاق (المستهلك) للأثر الادبي . كما حصرت ذهنية القياس أو التنظير في مستوى (الدارس) للأثر الادبي . فذهنية السماع كما نلاحظ مقصورة على العموم وقد استنتطق مجموعة محدودة (في اطار الزمان والمكان) فلم يجد منهم الا المستحسن والمتعاطف مع أدب البشير خريف . ويرى الحمزاوي أن ذهنية القياس أو التنظير ، تلك الذهنية التي تملك المؤهلات ما يسمح لها بالغور في أدب خريف لم تعط لهذا الادب حقه اما عن خطأ في التقييم أو على سوء استعمال والامثلة عديدة مثلما جاء في كتاب الادب التونسي المعاصر المكتوب بالاسبانية اذ اقتصر هذا الكتاب عن نقل نص من رواية برث الليل فيه صورة عن الاسبان في تونس . أو ما جاء في كتاب روسي خصص للادب التونسي المعاصر صدر بموسكو سنة 1968 وقد حشر خريف ضمن التيار الواقعي والاتجاه الوطني الحماسي وهو نابع عن النضال الوطني ضد المستعمر . وفي الداخل لم يكن الحال بأفضل مما هو في الخارج اذ اقتصر المنظرون عن ادماج البشير خريف في اطار المدرسة الواقعية مثلما فعل رضوان ابراهيم (كاتب مصري) في كتابه « التعريف بالادب التونسي » . أما فريد غازي فان قدم لنا شيئا عن افلاس أو حبك درباني فقد حلل أدب خريف تحليلًا عامًا لا يمس العمق مركزا خصوصا على القطيعة التامة بين سلوك المؤلف وسلوك شخصه . ويرى الاستاذان بكار والقرمادي أن خريف امتداد لعللي الدعايجي .

وإن كان تناول مضامين البشير خريف هزيلا فتناول الشكل وخصايص الشكل عنده كانت أقل خطأ . فباستثناء بعض الاشارات حول استعمال اللغة فاننا لا نجد شيئا آخر يذكر . فما قدمته لنا هذه الذهنية فيه نظر ذلك أن هذه الذهنية الادبية لم تزودنا بالكثير عن خريف تعريفا ومقارنة . وخريف جدير بالدراسة ذلك ان اسلوبه فريد مشحون بالخيال والشاعرية والتهكم . وهو من المجددين الثائرين الذين قلت روابطهم بالفن القصصي الغربي : ويرى الاستاذ الحمزاوي أن أدب خريف أدب حدس لا أدب واقع ذلك ما يبدو واقعا

للكاتب يمكن ن يبدو خيالا للقارئ . وهذا يكمن فى قوة أساليبه التى تجعل هذا القارئ لا يفرق بين ما هو واقع وما هو خيال أو حدس . ولهذه المعطيات فقد تجاوز أدب خريف الواقعية .

أما الاستاذ عبد اللطيف عبيد فقد تناول موضوع التداخل اللغوى فى أدب البشير خريف . فلاحظ أن الجانب اللغوى قد طغى على مسار النقد وأهملت الجوانب الابداعية الاخرى وهذا يرجع أساسا الى :
- علاقة اللغة بالكتابة الادبية .

- توظيف الانتاج الادبى توظيفا تربويا مما يحد من تناول هذا الادب بتعلة سلامة اللغة نظرا للثنائية التى اعتمدها البشير خريف وتحمسه للعامية مع حدة فى استعمال هذه اللغة العامية . ثم لاحظ أن خريف لا يستعمل هذه اللغة الا بقدر الحاجة اليها مما يضيف على الاثر الادبى واقعية مركزة على الحدث القصصى . ثم استعرض مسردا لغويا فلاحظ ان خريف استعمل 270 اسم دخیل على الفصحى . ومجموعة هامة من الافعال . من بين هذه الافعال حوالى 60 فعلا لها مقابل فى العربية الفصحى .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

اما الاستاذ ابن مراد فقد قام بـ «مسرد لغوى لرواية الدثلة فى عراجينها» هذا المسرد اللغوى قد يكون تنمة لدراسة الاستاذ عبيد . وقد تناول ابن مراد الالفاظ بالتحليل والتدقيق انطلاقا من هذه الرواية . شرح استعمالها مبسطة ثم اعادها الى اصولها فى اطار الزمان والمكان . ويعتبر هذا العمل تنمة أيضا لعمل معجمى يقوم به ابن مراد فى اطار ادماج الادب المكتوب بعاميات محلية فى الدورة التربوية .

اما مصطفى التراتى فقد قام بدراسة انطباعية لاقصوصة «رحلة الصيف» . مثل هذا العمل له أهميته فى اطار المدارس والادب التونسى فى حاجة الى من هو قادر بأسلوب جذاب أن يعطى وجها مشرفا لأثر أدبى . وكان أسلوب الاستاذ التواتى من الروعة بمكان بحيث أضفى على القصة مسحة المتانة والذكاء فى

معالجة الأحداث . والادب التونسي فى حاجة الى من يذكى فى قارئه حماس المغامرة وتتبع مسالكه الوعرة فى رحلة شاقة عبر أثر فني مشحون .

★ ★ ★

وكان الحثام مع سمير العيادى فى كلمة انطباعية وقراءة مستحسن لبيوغرافية البشير خرف . كلمة وفاء ألقاها سمير العيادى بأسلوبه اللبق وتحية ود من كل رجال الفكر تحدث فيها سمير عن شبكة العلاقات القائمة بين رجال الفكر والبشير خريف بصدق ومحبة . هناك تضارب فى الآراء وهناك نشاز وهناك اختلاف فى الطبيعة وهناك محبة واحترام وتقدير .

التوصيات

مع انتهاء الندوة صدرت التوصيات التالية :

- 1 - التشجيع على إعادة نشر كتب البشير خريف من جديد فى طبعات أنيقة وطبع انتاجه المخطوط اعترافا بمنزلته الفكرية والادبية وتنزيلا له فى التاريخ الادبى التونسي .
- 2 - العناية بانتاجه الادبى تدريسا وبحثا لمزيد التعمق فيه وتأصيلا للادب التونسي الانسانى فى التراث الفكرى .
- 3 - التزام وسائل الاعلام بالتعريف بأدبه ونشره وتركيزه فى الذهنية التونسية خاصة والعربية عامة .
- 4 - دعوة الاوساط المسؤولة الى ترشيح البشير خريف لجائزة رئيس الدولة اعترافا بقيمته وبمنزلته فى التاريخ الادبى المعاصر .
- 5 - انصاف البشير خريف وتمكينه من حقوقه الادبية والمادية الحاصلة من انتاجه الفكرى دفاعا عن حقوق المؤلف واحتراما له .
- 6 - دعوة الدوائر المختصة الى نقل مؤلفات البشير خريف الى اللغات الكبرى وبالحصوص الى الفرنسية والانكليزية والاسبانية والروسية .
- 7 - دعوة المجالس البلدية فى القرى والمدن التى اهتم بها البشير خريف فى أدبه باطلاق اسمه على النوادى الثقافية فيها وبتخصيص جوائز للانتاج الادبى تحمل اسمه .

محمد الهادي بن صالح

الشير خريف :

« يا ابن بلدي إليك أتكلم »

قدمت لاحدى قصصي مقدمة أتلوها عليكم وهي : « يا ابن بلدي إليك أكتب » انتهت المقدمة وهي كما ترون قصيرة ، أقصر مقدمة لكتاب ، فيما أعلم ، كما أن لمواطننا العظيم ابن خلدون أطول مقدمة .

وفي هذه الفرصة السعيدة أقول « يا ابن بلدي إليك أتكلم » .
ولكن الموقف رهيب وما تعودت الخطابة فما أنا إلا رجل وحده ، أتكلم مع نفسي فأتبادل وإياها الهواجس والأفكار والأحلام وقد يذهب بي الحوار فأخذ القلم وأكتب .

قال المرحوم الدكتور الطاهر الخميري ، لما عاد الى الوطن واتصل بأخوانه بعد اغتراب طويل قال : اني اطالع ما يصلي من صحافة بلادي ونشرياتهما ثم ها اني بينهم وأنحدث اليهم وأسمع منهم فاذا كلامهم اثرى وأمتن من كتاباتهم . هكذا قال الدكتور فجعات أتكلم في كتاباتي فجاء جزء منها بلغة الكلام وجاءت افكارها غير ملتزمة إلا بالاخلاص للادب .

فلقيت تجاوبا أحمد الله عليه وان يؤت بغضب فريق من المتزمّتين المتزمين فما باليت .

والالتزام هذا لفظة منقولة عن لفظة غربيّة ، فأدت معنى زائفا عما يراد ونحن مشاركة ولا يمكن إلا ان نكون مشاركة في فهمنا والا وقعنا في التبعية وسوء الفهم .

لفظة الالتزام فيها حد من الحرية وسلوك طريق رسمه الغير فتوحي
 بغلّ يحيط برفرقة الفكر وتخليصه وخير منها لفظة التجديد . أجل ! فهدفنا
 واحد فذرني اختار طريقي وذرني اختار سلاحني فنجاعة الادب ان يكون
 حرا ونجاعة ما يسمونه الالتزام أن يكون عفويا .

الا اني ، وان كنت أنفر من هذه الكلمة ملتزم وأي التزام .

ولقائل ان يقول : اين إخوة برق الليل وخليفة الاقرع وجماعة
 الدقلة في عراجينها ، هل انتجعوا ؟.

فالجواب : ان دولتنا اصدرت مجلة في حقوق التأليف وانشأت
 مؤسسات لرعاية الادب وتشجيعه ، غير ان التصرف كان سلبيا ، فما
 من منتج ولا مؤلف ولا مترجم الا وهو مهضوم الحق .

فالتجأت الى القطاع الخاص فما أجدى فأمسكت واكتفيت بنفسي ،
 أنبادل واياها الهواجس والأفكار والأحلام .

فلما دعاني صديقي الدكتور رشاد الحمزاوي لاقامة هذا الحفل
 الكريم تخرجت بعض الشيء . فقال مشجعا لا عليك الا الحضور والاستماع
 ولكن كان لابد من الترحيب بكم وابلاغكم بشيء وها قد فعلت والسلام
 عليكم .

البشير خريف

تعقيب محمد العروسي المطوي

كتب رئيس تحرير هذه المجلة بالملحق الثقافي لجريدة العمل بعنوان
 « انتحار أدبي » بتاريخ 8 مارس 1982 ما يلي :

في الكلمة الموجزة التي ألقاها البشير خريف في حفل التكريم الذي أقيم له بالمركز الثقافي الدولي بالحمامات الكثير من العفوية الصارخة والصرامة المرة . لقد قال كلمته تلك في محفل لخلآن الكلمة وأصدقاء الحرف التموا محتفين به ، منوهين بشأنه . وإذا هو يعلن عن المأساة بصراحته وعفويته . ومن عرف البشير خريف عن كذب لا يستغرب منه ذلك . ولو قال العكس لأصبح البشير خريف شخصا آخر بعيدا عن هويته ، غريبا عن طبيئته . وتأنك أفنومان عنده لا محيض ولا مندوحة .

لقد أعلن البشير خريف في ذلك الحفل عن يأسه وعن انتحاره الأدبي . لقد قال مجيبا من يتساءل : « .. أين إخوة » برق الليل » و « خليفة الأقرع » وجماعة « الدقلة في عراجينها » هل انتجعوا؟؟ .

فالجواب أن دولتنا أصدرت مجلة في حقوق التأليف . وأنشأت مؤسسات لرعاية الأدب وتشجيعه ، غير أن التصرف كان سلبيا ، فما من منتج ولا مؤلف ولا مترجم إلا وهو مهضوم الحق . فالتجأت إلى القطاع الخاص فما أجدى . فأمسكتُ واكتفيتُ بنفسي أبادل وإياها الهواجس والأفكار والأحلام .. » .

هذا عين مقاله البشير خريف في حفل تكريمه . وهذا هو النشاط بين القول والفعل ، بين مشروع النظام والمسؤول عن التنفيذ . وهذا هو الجواب الصحيح لتساؤل الناس - أكاد أقول كل الناس - عن احتجاب عبقریات البشير خريف وإنتاجه . وعرف أولئك الناس أن القضية ليست عقمًا بل تعقيما . وليست جفافا في المعين بل طمسالة .

وعندما يفوت الأوان يبقى نتحسر عما فات ونعض أصابع الندم أو نتظاهر بذلك على الأقل . ومن غريب الأمر أنه في نفس عدد « الملحق

الثقافي « الذي قال فيه البشير خريف كلامه كتبت أنا في نفس العدد موازنا ومقارنا بين تقديرنا للكتاب والمفكرين ، وتقدير الأمم المتقدمة – فعلا – لكتابها ومفكرها مما كان شاهدا غير مدعوت ، وحجة أنت بها الصدفه على غير موعد . ورب صدفه خير من ألف ميعاد » .

فماذا يعني كل ذلك ؟! إنه الإصرار على « عقدة العرجون » من ناحية ، وتأكيده للمقولة « إننا لا نعطي للفكر قيمته » . وإنها لظاهرة متواصلة لا تشحذ العزائم ، ولا تعطي المثل . لا تبرز القدوة ولا تمد بالمرهم الناجع يستأصل العلة ، ويقتلع النبتة الخبيثة .

إننا مازلنا نكرر القول بأن العلاج السليم الناجع لا يتمثل في الأمانة وحتى القرار .. إنه أبعد من ذلك بكثير .. إنه يتعلق بالتأصيل القومي والضمير الوطني . وأن العلاج السليم الناجع لا يتحقق بالمحاولات السطحية ، والومضات العابرة ، ولن يتم بالتمسك بالقشور والأسهل .

إن العملية الجراحية – في أحيان كثيرة – هي السبيل الوحيد والأقوم . وقديما قال الجدود : « آخر طب الكي » . ولم تكن لديهم معطيات العملية الجراحية فأتوا بما يعرفون ، وقدّموا ما يستطيعون . فهل نحن عاجزون عن العملية الجراحية للقضاء على العلة المزمنة والداء العضال ؟

الذي أزعمه أننا عاجزون عن ذلك بالفعل . لأننا لم نخطط للتغيير الحق ، التغيير المبني على الإثبات للذات والتأصيل للكيان تبعا للمنهجية القرآنية التي قالت : « .. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .. » .

محمد العروسي المطوي

كلام منشور لتجميع شوارد الذهن حول جملة واحدة (تحية لسي البشير)

«لَا تُكْرَهُوا أَبْنَاءَكُمْ عَلَىٰ أَخْلَاقِكُمْ فَلَمِنْهُمْ خُلِقُوا لَزَمَنٍ
غَيْرِ زَمَنِكُمْ» (*)

عمر بن الخطاب

لا أذكر متى التقيت به لأول مرة .

وقد لا تكون هناك مرة أولى ومرة أخرى . فهو من أطيف الزمن
يعاند عناد القلب المؤمن ، يعاود الانصار والكفار ، يراود الاذهان على
مدى تحولات الأجيال

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ربما انبرى لعيني مجمعا جسمه النحيل في جبة رمادية متربعا في
أريكة واسعة من ارائك نادي أبي القاسم الشابي . ملاطفا سبسيه بأنامل
رقيقة حتى إذا ملّ كوى رأسه بالنار وقبل ثغره بشفتين أدق من خيط
الفجر ، فلا يعرف السبسي أيشكي من لوعة اللهب أم يترنم بلطف القبل .
— اشكُونْ هَذَا ؟

— مَا تَعْرِفُوشْ ؟ هَذَاكَ سِي البَشِيرُ مُتَاعٌ « بَرَقَ اللَّيْلُ ... »

(*) حكمة كان يرددتها البشير خريف في المجالس الادبية احتد النقاش بين
المحافظين والمجددين وبها علمنا أدبا كبيرا : أدب الحوار والتفهم
والاحترام .
س . ع .

في ذلك العهد كان سي البشير من الذين لا يسهون عن صلاة عشية السبت في معبد بناه مع عدد قليل من الرفاق المؤمنين وأسموه « نادي القصة » كان المتعبد الوفي الذي لا يغيب . بل كان أول القادمين آخر المنصرفين ، حتى حسبناه لا يرحل . كان « عرصة » النادي .

وكان أحد شيخين (1) حريصين على إشعال كل الفوانيس في ذلك المحل المنفي في حيّ الوردية كلّ عشية سبت وإن ضل المريدون يومها . فلربّما امتدى أهل الشكّ أو الفضول .

— اسْمَعُوا . وَلَوْ مَا جَا حَدَّ مَنَّا . وَصَيُّوا الْعَسَّاسَ يُطْبِخُ التَّايَّ كَالْعَادَةِ . وَيُخَلِّي شَمْعَةَ النَّادِي تَشْعِلُ .

تغيّب سي البشير مرّة . ثمّ مرّات . ثمّ انقطع مجيئه . ثم انقطعنا عن النادي . ولكن الشمعة التي أشعلها سي البشير لم تنطفئ . هي لاتزال تعاند الفتور والفتنة والافلاس فتضئ قلوب فتية آمنوا بما آمن به من قبلهم سي البشير فالتزموا الماثرة في الكتابة مهما حصل وأينما قادمهم الرحيل . كان إيمان البشير خريف بالقصة يخيفنا .

لم نكن نتصوّر ولا نتصور الآن أن أحدا منا سيصبر ذلك الصبر في الهامش والرياح عاتية تعصف في جماجمنا وتهتف بحلول ساعة التمرد على كل إيمان ثابت وعلى كل تفاؤل مستكين .

(I) هو الاستاذ محمد العروسي المطوى رئيس نادي القصة والمدير المسؤول عن مجلة « قصص » .

ولم تكن نتصور ونحن نتصور الآن أن بإمكان أحدنا أن يتناول
على أسس كان شيخانا يريدان إثباتها للقصة التونسية ، فلا يغضب الشيخان ،
بل إن أحدهما ينصت ويقرأ وينشر . والآخر ينصت ويبارك ويضحك
ضحكة مبحوحة خافتة .

- الله يهديكم ..

- علاش سيّ البشير ؟

- قول آمين ، الهدى ديمّا بأهبي .

في مواضع أخرى من ذاكرتي أوى فتيتنا يجلسون إلى مائدة سيّ
البشير مساء الخميس في « مقهى المغرب » أو في « مطعم الديك الذهبي »
أو في نادي دار الثقافة ابن خلدون بعد جاسة نادي الخميس . اللقاء أسبوعي
ولا داعي ولا موعد ولا مناسبة سوى العادة والألفة والأنس .

- اللّبي نحبّ ينجي مرحبًا . كلّ شيء موجود ، التّاي
القَهْوَة الشّرّاب للّي يقيد رُوحو ، واللّبي عندو يخلّص .

- سيّ البشير ، اشنو رأيك في قصّة محمود ؟

- كيف هو رضا عليها ونشرها لازم تكون بأهيه .
شو ! هاك العامّ مشيت لفرنسا ...

ينطلق سيّ البشير في ذكرياته لا يعود إلا إذا أدرك أننا نسينا قصّة
محمود . كان لا يستسيغ الخوض في أمرين : السياسة « متاع إماليها »
والأدب التجريبي « متاعكم انتوما مسؤولين على جيلكم » .

كنت في طرف المائدة أنظر وأصغي . أشعل سي البشير سبسيه .
تساءلت : هل إن الرجل يسخر منا ؟ إنه لا يعبأ باستفزازاتنا ولا يتخرج من
جلوسنا معه في نفس المكان حول نفس المائدة وهو يعلم أننا نرمي أدبه
بالانتساب إلى الماضي بل بالمجانبة إذ هو لا يقصد إلا إثارة أهدوثات
طريفة في إطار مجتمع ساذج منسحب متقلص ، بل بالنقل الواقعي
الذي لا يتطلب جهدا أو فنا . وهو يعتقد أننا جعلنا القصة « تاكل على
رأسها ما كلاً الطبل نهار العيد » لكنه يبقى هادئا يناوش أطراف
الحديث عن الخمر ، وعن النساء ، وعن الفن ، وعن الدنيا التي « تضحك
لتي يضحك لها » وعن « العالم اللّبي هو عالم ربّي واسع ، وحرام
عليهم اللّبي يدعوا الباسبورات وعيب على الجماعة الآخرين
اللّبي اعطائهم وفكّهم » .

قد لا نستفيد من الرجل شيئا يخصّ القصة التونسية . كتابته معروفة
وهو لا يعرف الحديث عنها مهما حاولت استدراجه . وكتابتنا لا تعنيه
لأنه من « جيل غير جيلنا » .
ولو سأله عن كاتب غيره من جيله يراوغ ويبدأ إجابته بضحكة
المبحوحة :

– مصطفى خويّا الله يرّحمو قال لي ...

أنصرف خائبا حانقا . وأعود بعد أسبوع لأن الفضول سكنتني والتحتدي
ملكني .

– اصبر سَمِيرُ يَنْعِشْ وَلَدِي ، رَاكَ مَا زِلْتُ صَغِيرُ .

في يوم أحد . أنا ومحمود (.....) وفرحات (.....)
قادتنا أرجلنا بعد أن حملتنا سيارة أجرة إلى بيت سي البشير بالقرب
من ضاحية منوبة . البيت وسط مزرعة . وسي البشير وسط الغرفة لا يندهش
لقدومنا .

– مَبْرُوكُ الْكِتَابِ سَيِّ الْبَشِيرِ ...

السبسي أولاً .

– مَبْرُوكُ عَلَى أَمَالِيهِ . خَرَجَ مِنِّي ارْتَحَمْتُ مِنْهُ .

الشاي ثانيا .

– هَايَلَهُ الرَّوَايَةُ سَيِّ الْبَشِيرِ ...

– أَنْتِ كُلُّ شَيْءٍ عِنْدِكَ هَايَلُ يَا محمود .

– بِالْمَنْجِدِ نَكَلِّمُ فَيْك .

– عَادَ أَنَا أَنْجَمُ نَكَذِّبُكَ . بَعْدَ اللَّيِّ تَعْتَقِدُ اللَّيِّ

« ضَحَنَ كِفْتَا جِي بِالْعَظْمَةِ » حَاجَهُ هَايَلَهُ . قَوْلُ هُوَ يَنْشَبِعُ
اللِّي مَا فِي حَالُوش .

والضحكة المبحوكة اللطيفة ثالثا .

– سي البشير أَنْتِ عَشْتَهَا الرَّوَايَةُ يُظْهَرُ فَيْك .

– كَانَ نَعِيشُ كُلِّ الْقِصَصِ اللَّيِّ كُنْتَبْتَهَا مَانِي نَوَلِي قَطُوشُ

بُو سَبْعَةِ أَرْوَاحُ .

– الْمَسْكِيَّ وَحَفَّهُ وَالْعَطَاءَ لَا زِمَ تَعْرِفُهُمْ ...

– مِنْ بَعِيدٍ لِبَعِيدٍ ... وَإِذَا مُوشُ هُوَمَا نَاسُ كَيْفُهُمْ .

نَعْرِفْشِي كَيْفَاشُ ! الْحَقِيقَةُ مُتَاعُ رَبِّي . أَنَا رَجَعْتُ بِرَشَّةِ مِرَاتِ

لجريد* باش* تخيلت*هم* . سمعت* الناس* تحكي* ... وهو* راهو*
موش* مهم* . المهم* هو* ما* توا* في* كتاب* باش* يعيشوا* بعدي* .

– قد* اش* قعدت* تكتب* فيها* ؟

– ما* نعرفش* بالضبط* . ما* سجلت*ش* . المرة* الأولى* كتبت*ها*
في* ليلة* واحدة* . اربعة* وثلاثين* صفحة* بقلم* الرصاص* في* زمام* .
بعدي* خد*متها* ...

في طريق العودة قال محمود : هذا الرجل سيغلبنا لأنه وفي لتاريخ
كامل ، ولأشخاص عاشوا معنهم الخاصة بدون أن يتدخل هو في
شؤونهم بدعوى أنه المؤلف .

قلت : ألا ترى أنه يتدخل بفكره وذوقه وظرفه ؟ فهو ربما كتب
عن حقب سابقة لكنه بعقلية الحاضر الذي يحياه كما يحياه . إن ليلة
الحب* التي عاشتها العطاء وماتت من أجلها لا يمكن أن تكون إلا في
ذهن الحاضر . ثم لا تنس أن في طي* تعليقاته محاولة للتعبير عن أفكاره .
هي أفكار ساذجة عموما . أفكار إنسان يحاول تسليط حكم القارئ
الذي لا ينتسب للحقبة المعلومة ولا لجيل المؤلف . اسمع :

« قال لهم وهو يحسر عن ذراع لطيف

– تشوفوا كيف*اش* نجعل* من* ها* الضعف* قوّه ...

تلك وقفة الحبيب بورقيبة في فجر الحركة المباركة التي ننعم بضحائها» (2)

لا أظن أن هذا التعليق الأخير ممّا يراود أذهان الناس في ذلّا

(2) الدفلة في عراجينها – الطبعة الاولى – الدار التونسية للنشر ص 367 .

الوقت . لذا فهي حشر المؤلف نفسه في الرواية معلقا على أحداث وشخصيات
ماض بعيد بخواطر عهد جديد ينعم بشمسه .

قال محمود : لعل المؤلف لا يعيش في واقع الأمر معنا ، بل مع
أبطاله في سالف الزمن . لعلنا لا نراه ولا نسمعه بل يخيّل إلينا . لعله
شبح يعاودنا .

سكتنا .

طويلا .

بقيت كلمة يتردد صداها على مدى الطريق بين شفتي فرحات :
« أربعة وثلاثين صفحة . بعد خدمتها ... »

« ماتت يتجهجد المؤذن وطلع سكير آخر سكت عندما »

وكذلك الذاكرة تأخذني الآن في قراءة عكسية « للدقلة في عراجينها » .
لكنها تتوقف عند هذه الجملة وتعود إلى النسق المرتب :

« وعندما سكت اخر سكير وطلع المؤذن يتجهجد ماتت » .

جملة واحدة في سطر واحد . ذلك أهم ما كتب البشير خريف .
بين الحياة التي تنتهي والحياة التي تبدأ ...

بين الحياة التي تنتهي نشوى بعيش متقلب الأحوال والحياة التي
تبدأ راضية مرضية ماتت العطراء ...

تخلص منها البشير خريف نهائيا بقساوة ودقة .

ضربة واحدة . قاضية . قاصمة . كترول سيف القدر .

كتب « ماتت » . ولم يصف ضميرا واحدا يذكرني بها .

وضع ماتت في أعلى الصفحة في نهاية سطر واحد هو السطر الرابع .
وبقية الصفحة بياض .

ماعدا ذكر مكان وتاريخ هو تاريخ ذكرى فصل بين ماض وحاضر

في واد ثريانة واد الصمت وفي تاريخ 18 جانفي ... « ماتت » .

في النّادي وخارجه ، وفي منتديات عديدة ، وضمن صفحات
متعدّدة ، لا تزال الشمعة تضيء . بل قد قوي وهجها ، فأدركنا أنها
من الشموع التي لا تفتنى .
مدّد الله في حياتها <http://Archivebeta.Sakl>

سمير العيادي

الحمامات 21/20 فيفري 1982

مع البشير خريف

خطرت ببالي ، وأنا معكم فى هذه الندوة اللطيفة الطيبة ، بعض التساؤلات التى ربما يتساءلها بعض الشبان من الادباء والطلبة وبعض من ليست لهم سابق معرفة أو علاقة بسي البشير خريف . هذه التساؤلات ربما تكون : أولا : ماذا يطالع سى البشير ؟ - ثانيا : ما هى أهم الكتب التى طالعها ؟ - ثالثا : من هم أهم الادباء الذين يحبهم ويميل اليهم ؟ - ورابعا وأخيرا : من هم الكتاب الذين تأثر بهم وظهر ذلك التأثير فى إنتاجه الادبى ؟ .

فهذه التساؤلات ربما وجد أصحابها لها أجوبة وهم يشاهدون سى البشير بيننا (أو شاهده فى المدينة عشية جالسا فى مقهى المغرب أو مقهى باريس أو مقهى البريد فى باب المنارة أو فى مطعم من مطاعم العاصمة ليلا) هكذا كما نشاهده الآن ، رجلا وسيمًا بهيا يلبس الجبة والبرنس فى الشتاء ويلبس الكلباك وأحيانا الشاشية ويلبس الجبة البيضاء والعراقية البيضاء فى الصيف عند شدة الحر فزيه دائما زى تونسسى تقليدى ، تراه هاشا باشا دائما ، لطيفا ظريفا ، هادى النبرات حلوها ، طريف النكتة خفيفها ، طريف الحدث يتناول غليونه أو سبسيه من حين الى حين ويهتم بتعميره برهة ثم يشعله بأناة ويجعل « يجبد جبدات » بمهل معمرا رأسه « كما يقول ... ويتحدث مبتسما ، منشرح الاسارير ، تمر ساعات كأنها دقائق وهو يتحدث عن كتاب قرأه أو محتوى مجلة طالعها ... نقول - اذن سيداتى ساداتى - إن من يشاهد سى البشير هكذا يعتقد أنه من أحد أدبائنا الكبار الذين يطالعون المعلقات والدواوين القديمة والشعراء المخضرمين والامويين والعباسيين وكتاب الاغانى ، والعقد الفريد ... فهذه الاجابة صحيحة ، فسى البشير طالع ويطالع هذه الكتب كلها . ومن من الادباء لا يطالعها ولا ينظر فيها ولا يهتم بشؤونها الاهتمام كله ؟ فهذه الكتب هى تراثنا العربى الذى نعتز به كل الاعتزاز ... وزد على ذلك فسى البشير يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويستحضره على طرف اللسان كما يقال . وهو عندما يريد ان يستشهد بآية فانه يأتى بها بسرعة ولا يدخل آية فى آية ولا تطفى عليه المتشابهات ،

ولا يتوقف ولا يغير كلمة بكلمة ولا حتى حرفا بحرف ... ومع ذلك فهو ولوع بطوق الحمامة وبألف ليلة وليلة وكتاب الرحالة ابن بطوطة .

وسى البشير بلغ الخامسة والستين من عمره كما قال أخونا عبد اللطيف عبيد أو إنه فى الرابعة والستين ولا يبلغ الخامسة والستين الا فى شهر أفريل . وشهر أفريل ما زال كما قال سى البشير) ومع ذلك ولكثرة معرفتى به فانى أجزم جزما قاطعا أنه شاب ينبض ويطفح حيوية ، له عواطف الشباب كلها لم يترك منها شيئا ... يقال - وهذا صحيح - إن من لا يعرف الحب عنده نهاية ، وان الذى ينبض قلبه حبا دائما يبقى شابا دائما ، لا يعرف الى الشيخوخة سبيلا ... وهذا حديث يطول ... لكن ... لكن ... أريد أن أبتعد رغما عنى ، مع معرفتى ويقينى أن الرجل بقوة شخصيته ، يتحمل مسؤولياته كلها ، وأنه يعتقد كل الاعتقاد فى كل كلمة يقولها وكل كلمة يكتبها ... ككل رجل بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، وككل كاتب أصيل شجاع صادق ... لكن المقام لا يسمح ...

إذن نعود ونتحدث ونجيب عن التساؤلات التى أردت طرحها فى أول حديثى هذا عوضاً عن أصحابها ، وأتابع قائلاً أن الادب كالحب ليس له حدود كما يعرف الجميع ، وسى البشير يهتم بأدبنا التونسي غاية الاهتمام كما انه يهتم بالآداب الاجنبية اهتماما بالغا . فمع تكوينه الخلدونى الذى جعله يحذق اللغة العربية الحذق كله فسى البشير يحسن الفرنسية الى حد بعيد ويتكلمها بسهولة كاملة ولا يتوقف عند الحديث بهذه اللغة الاجنبية لفرار كلمة أو لسر فى تعبير ... وله معرفة جيدة بالادب الفرنسى ، فانه يستطيع ان يحدثك عن راسين Racine وكورناي Corneille كما يستطيع أن يحدثك عن موليير Molière كثيرا ، ولا غرابة فى اعجابه بموليير الاعجاب الكبير كما انه طالع شعر الناقد بوالو Boileau وتحقق فى قصص فولتار Voltaire الفلسفية وانكب على مؤلفات ج. ج. روسو J. J. Rousseau طويلا ... وتسرع وتقول أن سى البشير أحب وما زال يحب صالونات القرن الثامن عشر وأحب وما زال يحب ويعشق بعض السيدات اللواتى اعتنن بصالونات ذلك العصر ، وتابع آثارهن واقتفى أثرهن مدة من الزمن وعندما يتحدث عنهن يتحدث بشغف كبير . ثم اهتم بالثورة الفرنسية وقرأ عنها كتباً كثيرة وقرأها قراءة المتبصر الناقد ووقف عند الامبراطور نابليون بونابارت

Napoleon Bonaparte وأعجب به وقرأ جل ما كتب عنه وقرأ له مذكرات سانت هيلين Ste Helène . وهو وبعد تعمقه فى كتب شاتو برييان Chateaubriand انتقل الى ف. هيفو V. Hugo وأعجب بقوته ودفق شعره لكن يخير عليه أ. دوما الأب A. Dumas Père فى كتابة الروايات وبالاخص الروايات التاريخية ... ويعجب كثيرا بـ أ. دي موسي A. De Musset ويحفظ كثيرا من شعره وتتبع جيدا حب موسي Musset لـ ج. ساند G. Sand وما لقيه من عذاب . وطالع بازاك Balzak كثيرا كما انه طالع بامعان مؤلفات فـ فلوبار G. Flaubert كـ مادام بوفاري Madame Bovary وقرأ كتابه المشهور صالمبو Salammbô بامعان وروية لما هذا الكتاب من علاقة بتاريخ بلادنا .

وسى البشير اهتم بالادب البريطانى وقرأ جل كتب دافنى دى موريا daphné du mauria وكتب الاختين إميلي برونتي Emily Brontë وشرلوت برونتي Charlotte Brontë كما انه اهتم بكتاب أمريكا وطالع مؤلفات أ. همنغواي E. Hemingway وأعجب بكتابه الشيخ والبحر . كما اهتم بكتاب أمريكا الجنوبية ...

وسى البشير يميل كثيرا الى مطالعة يوميات الكتاب يطلع هكذا على حياتهم الادبية واليومية ويجد فى ذلك كثيرا من الفوائد التاريخية ما لا يجده فى الكتب التى ارخت للادب كما يميل كثيرا الى مطالعة الادب النسائى ويقول لى أحيانا : « تعرف أنا نحب نقرأ كتباً كتبتها نساء على خاطر نلقى فيها أفكار ونظرة للحياة وملاحظات دقيقة وأحاسيس ما نلقاهاش عند الكتاب الرجال... » فاهتم اذن وطالع كتب الاختين بونوالان وفلور ثرولت Benorlé et Floro-Groult واهتم كثيرا بـ سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir وهو يفضلها على الادبيات كلهن وربما على الادباء كلهم ويطلع كتبها باستمرار وهو مولع بها أشد الولوع الى حد انه يقول لى فى

بعض الاحيان : « شوف ، شوف ، ويريني كتابا من كتبها ، راني ديمه نقرأ فيها وديمه ما نشبعش وفي الليل قبل ما نرقد راني قريب نعرس بيها ويضحك ضحكة من ضحكاته اللطيفة الهادئة ... »

وسى البشير على خلاف جل الادباء ، والحق يقال ، لا يرغب ابدا في مطالعة آثار كتاب القصة في الشرق ولا يعرف عنهم الا القليل ويقول لى عندما يدور الحديث حول كاتب ما أو رواية ما يقول لى : « نعرف كلهم يقلدوا ، كلهم يقلدوا كل ما يكتب فى الغرب ... » وسى البشير يهتم كما قلت بالادب التونسى ويطالع لجل كتاب القصة فى بلادنا ويهتم بانتاجهم .

أعود اذن وأتحدث عن التساؤلات التى طرحتها فى أول هذا الحديث وانتقل الى السؤال الاخير الا وهو : من هم الكتاب الذين تأثر بهم سى البشير ، فأثروا فى انتاجه ؟

كل من يطالع أو طالع أدب سى البشير يعرف انه رغم التيارات التى وجدت والتى لا تزال قائمة فى الآداب الاجنبية ورغم عمالة الادب الذين استطاعوا ان يؤثروا فى عدد كبير من الكتاب فى الشرق والغرب . Kafka فكفكا مثلا استطاع ان يؤثر فى عدد ضخم من الكتاب وسيلين Céline أثر فى جل كتاب القصة فى القرن العشرين فى فرنسا وسارتر Sartre نفسه تأثر به ولا يخفى ذلك بل صرح به علانية... فربما كل التيارات الجارفة الطاغية المزلزلة لكيان كثير من الكتاب فالبشير خريف بقي البشير خريف كما هو ، صمد ولم يمل مهما هبت تلك الرياح العاصفة ، ولم يتزحزح ، وقيتارته الخاصة لم تغير أوتارها ولم تعوض بأوتار مستوردة لانه كاتب أصيل فنان تونسى بقي تونسيا عبر عما يحب التعبير عنه بطرافته المعروفة ، بكل صدق واخلاص .

لكن ... لكن اسأله من حين لآخر ملاطفا قائلا .

- يا سى البشير علاش ما تكتبشى ؟

فيجيب بقلق بطلت يا محمود ، بطلت وسئمت ، فديت . الكتابه توه صعبت ومشاكلها إيزايد ، وكل كتاب عندي عنده مشكلة ، كل قصة عندها مشكلة ، ومحامين ومحاكم تبت وما عادش نحب هذه المشاكل ، ينشروا الكتب متاعى ويعاودوا طبعها من غير ما نعلم ، يقتبسوا منها من غير ما نعلم يمثلوها ويخرجوها فى أفلام من غير ما نعلم هاو شوف ويفتح كتاب نصوص للتعليم الثانوى شوف يا محمود ها الكتاب هذا الثمن متاعه البدلة فى عراجينها شوف ويقدم لى كتاب برث الليل ، فى لغة اخرى فى مظهر جديد غريب لا نعرفه ، شوف هذا برث الليل ترجم للاسبانية وقدموه لى هدية !؟

- يثور ثائر اصدقاء سى البشير ويثور ثائر كل من يطالع أدبه ويحبه ويصرخون بأعلى أصواتهم ان سى البشير صدم ، صدم فى أعز ما عنده فى أدبه حتى يئس اليأس كله وحطم قلمه منذ سنين عديدة وبقي ينظر فى صمت وسخرية ، سخرية يرسلها فى ضحكاته عن تجار الادب وعن المتكالبين على المال ...

محمود بلعيد

مقدمة لمجموعة « مشموم فل »

عندما رأيت البشير خريف لأول مرة في أواخر 1958 عند زيارته لأسرة «الفكر» في لقائها الأسبوعي بنادي قداماء الصادقية ، وعرض قصته «حبك درباني» أو «افلاس» للنشر تباعا على صفحات المجلة ، لم أكن أعرف عنه شيئا ذا بال ، إذ لم يسبق له ذكر في الصحف الادبية ولا اشتهر بعمل ضمن النوادي والجمعيات الثقافية ، او استقطب حوله نخبة من الطلبة والمريدين بفضل نشاط جامعي او اشعاع مدرسي . ذكرت فقط ان اخاه مصطفى خريف ، صاحب ديوان «شوق وذوق» - رحمه الله - حدثني عنه ذات يوم من سنة 1957 مشفقا ان تنهار اعصابه وتضيع مواهبه الادبية بسبب عمله المرهق كمعلم بمدرسة نهج النفاثة المهنية للفتيات .

وبدا يتلو مخطوطه في حياء وحماس معا . وما كاد يبدأ الحوار بالعامية وتترى الاشارات الى البيئة التونسية والسمات القومية حتى تضاحك البعض وتهامس آخرون . وكانت دقائق حرجة كادت تقع فيها القطيعة ، لان البشير خريف يجمع بين قوة الشخصية والثقة في النفس والشعور المرهف بالكرامة . وخشيت الصدمة والصدام فتسلمت النص ووعدت بقراءته وتقديم تقرير عنه .

والواقع اني ما كدت أطالعه مساء ذلك اليوم حتى جذبني له جذبا وشدني اليه شدا فمازلت به حتى فرغت منه دون توقف . لقد وجدت في «حبك درباني» فنا ذا كثافة ورونق وصفاء ، وقصة زاخرة بأسلوب التشويق ، خالصة من شوائن التكلف والتزويد . ولمست زواجا رائعا بين التحليل الذكي العميق والكلمة الصائغة الرشيقة ، بين الوصف المشرق والملاحظة الطريفة والروح الانسانية الرفيعة ، فامنت بأني ازاء اديب بالسليقة اسعفته الملكة واكتملت لديه التجربة وتوفرت له الادوات فصور ما احس به واعتلج في نفسه وتجاوب مع وجدانه في أمانة ودقة ولطف وبأسلوب ينطق على السجية ويطفح بالسلاسة وخفة الروح فيملك لب القارئ ويشيع فيه المرح ويحمله كذلك على التأمل في النفس والوقوف على أحوال الناس والمجتمع .

وأثار نشر هذه القصة على صفحات الفكر حفيظة بعض الاساتذة الذين تمسكوا بالقواعد والقوالب وأغفلوا الحياة فظلموا من يخلقون ويبدعون ويجددون فكالوا له الانتقادات كيلا وعدوه من «شرذمة» المتطفلين على الادباء والمذبحيين» وذكروه بقول ابن رشيقي القيرواني : ان الادب أهون ما يكون عند الجاهل وأهول ما يكون على العالم ... ولكن البشير خريف صمد أمام تقعر المتقعرين وشك المتشككين ولم يحفل بسوء الادب إزاء الادب الحق ولا انساق مع من اشتبهت عليهم القيم والمسابك .

وسررت كثيرا عندما قدم البشير خريف ترشحه لنيل جائزة «على البلهوان» البلدية سنة 1960 ، فأرسل بمخطوط «برق الليل» لانه بذلك اقام الدليل على رباطة الجأش ومضاء العزيمة وبرهن على طول النفس وتواصل الجهد ، ورفض الانحناء امام دعاة العجز والهزيمة وضحايا الانبتات الثقافية ، الذين لا يعتمدون الا المقلد المستعار من المقاييس الذوقية والقواعد الادبية والفنية وزاد سروري عندما فاز صاحب «برق الليل» بالجائزة . واشهد للتاريخ - بعد مرور احد عشر عاما بوصفى رئيسا للجنة الثقافية لبلدية تونس حينذاك وبالتالي مشرفا على الهيئة المسؤولة عن هذه الجائزة - ان الامر لم يكن ميسورا لان بعضهم استهانوا بهذه الرواية التاريخية وتسرعوا في الحكم عليها دون ان يحاولوا الافلات من قيودهم المدرسية ولو استقام لهم ذلك لكرعوا من روائها الشعرى وتفاعلوا مع شخصياتها في عظمتهم وحقارتهم ، في آلامهم وآمالهم ، في قدرتهم وعجزهم ، في توقعهم الى الاعلى والاجمل ونزوعهم الى المطلق ، ولوجدوا فيها لمسات انسانية خالدة لانها صورت كاحسن ما يكون التصوير العواطف والخلجات البشرية الصميمة العالقة بالكيان الانساني مهما اختلف المكان وتعاقب الزمان . فهي كغيرها من قصص البشير خريف قصة تونسية انسانية يدل على ذلك تجاوب الشعب مع الحلقات الاذاعية المقتبسة منها . ولو كتب لها ان تكون موضوع شريط سينمائي وتظفر بالمخرج المقتدر لكان لها صدى بعيد يتجاوز حدود بلادنا بدون منازع .

وواصل البشير خريف انتاجه ونشرت له «الفكر» اثناء الاعوام العشرة الفارطة غالب القصص التي جمعها في «مشوم الفل» الذي اتشرف اليوم بالتقديم له .

وصدرت له منذ حوالى سنتين - بعد مجهودات شاقة وتمشيات متوالية أعرفها حق المعرفة ولعلى شاركت فى بعضها بقسط متواضع - رواية طويلة بعنوان «الدقلة فى عراجينها» فكانت تتويجا لأكثر من عشرة أعوام من الجهاد الادبى والمعاناة الفنية دخل البشير خريف - بعدها - عالم الادب من اوسع ابوابه وأخذ مكانته المرموقة بين رجاله الافذاذ .

وان فيما سبق لعبرة لمن يريد ان يعتبر من بين القصاصين التونسيين الشبان الذين اعتقد ان تباشيرهم اوفر واوفى من تباشير الجيل السابق الذى كان له على كل حال فضل الريادة والسبق . انهم قد يكونون محقين فى تمردهم على قصص من سبقهم ، ولا أقصد بالضرورة أدب البشير خريف ، وعزمهم تجاوزه مضمونا وشكلا . الا انه لابد لهم أن يذكروا أمورا أهمها .

● ان البشير خريف كان فى الستينيات - وفى مقدمة نخبة من الادباء - ثائرا بدوره على القصة القديمة ناقما على فنياتها العتيقة وقوابلها الجامدة ، خالقا لغة حية جديدة ، واهبا الكلمات شحنة وجدانية موحية ومحتوى ذهنيا طريفا .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

● وانه لم يقلد الغير ولا انبهر بالتيارات الحديثة المستوحاة من بيئة غير البيئة التونسية ، ليقال انه منسجم مع اقرب المدارس الادبية الى روح العصر والصقها بالطبيعة والطلائعية .

● وهو - لئن طالع كثيرا وتغذى باشهى ثمرات الثقافة الغربية والشرقية - لم يرض بالتبعية ولا ظل مشدودا ببصره ووجدانه وعقله الى الشمال او الى الشرق بل نظر الى نفسه والى مجتمعه واستمد تجربته من تونس ، من البيئة التى عاش فيها طول شبابه وعاشرها معاشرة الصديق واحبها واخلص اليها كاصفى واروع ما تكون المحبة والاخلاص .

وهذا معناه ان قصص البشير خريف ليست من النوع الذى ينعتة البعض بالفلكلور او الادب الاقليمى الضيق لانه يتجاوز الالوان المحلية والاطار المحدود وينفذ الى صميم الانسان ، فهو يحب تونس محبته للانسانية ويؤمن بها ايمانه

بنفسه ، ويشع فيك هذه المحبة وهذا الايمان ويعرفك بنفسك وبخصائص
وطنك معا ، وهو مع هذا يغذيك يمتعك ويدفعك الى التأمل فى منزلتك .

وليس معنى ذلك ان ادباءنا الشبان مطالبون بالبقاء فى فلك البشير خريف
والتقيد بمدرسته او بأية مدرسة اخرى ، بل ان فى الابتعاد عنه اخلاصا له
وبرا به . ولكنهم اذا راموا الاصاله وطمحوا الى الادب الكبير فهم مضطرون
الى رياضة انفسهم على خصاله : الثقة فى النفس ، ورفض الولاء للاغيار وتحاشى
«الخيانة» الحضارية ، والايمان بأننا على قدم التكافؤ الوجدانى والذهنى مع
الاجانب ، ومضطرون ايضا الى استيحاء قصتهم - وادبهم بصفة عامة - من
تونس بقطع النظر عن النمط الفنى الذى يختارونه فى كتابتهم ، بحيث
يصورون خصائص بيئتهم ويستمدون أحداثها من محيطهم ويكونون فيها امناء
لروح شعبهم ونظراته للوجود ويعمقون انسانيته من دون سباحة فى الوهم
ولا شطحات فى الزيف .

ولا عليهم اذا هم نالتهم - بعد ذلك - التهم ، وقسا عليهم النقد ، وظلمهم
نفر من الاساتذة «والاختصاصيين» ، فطريق الخلق الفنى الحق محفوفة
بالاشواك ولن يبنى الادب التونسى الا بفضيل المؤمنين القادرين على
التضحية اى على البذل والعطاء . ومن هنا كان الادب الاصيل من نوع الملحمة
لانه جهاد مضمّن ومخاض هائل وتجاوز متواصل وخلق مستمر للذات وتقييم
متجدد للكون وتنظيم لاشواق الوجود !

ولعل ابتعدت عن القصد من هذه المقدمة اذ قدمت المؤلف اكثر مما درست
التأليف واكتفيت بالكشف عن جوانب من قصة ميلاد الروائى البشير خريف
دون الغوص على خصائص انتاجه ، وحسبه فضلا انه بعد المساهمة الحاسمة
فى بعث القصة التونسية بعثا غداة الاستقلال وربط الصلة مع على الدوعاجى
الذى يعتبر الرائد الاول فى هذا الميدان قد دعم الايمان بالادب التونسى
الصميم وهيا السبيل لجيل السبيعينيات الطموح كى يركز هذا الفن الطارف
من فنون الادب ، ويبوء القصة التونسية المنزلة اللائقة بين آداب الامم
الاخري .

ألا ترى ان قضية «المذهب» ثانوية في آخر الامر ؟ وان الاهم هو قبل كل شىء ظهور القصاص الاصيل والاديب الكبير ، وهما اللذان يفرضان الاتجاه المتميز ويوحيان للنقاد والدارسين بالمذهب «الجديد» . كما ان الاهم في اللغة هو الخلق والابداع وما يودعه الكاتب المقتدر في الكلمات والعبارات من جديد المعانى وطريف المقاصد وحتى المضامين بحيث يبقى للمجامع والاختصاصيين التعيد والتقين و «تسجيل ما اشتهر والاعتراف بما فرض نفسه واستقر» !

وبعد فلئن اقتضى الحكم النزيه مجالا بصريا كافيا وابعادا في المدى الزمنى فانى مقتنع بأن قصص أحننا فى الادب البشير خريف أصيلة وليست وافدة او مستوردة ، وانه واحد من اولئك الذين ينهض بفضلهم الادب التونسى ، لا فقط بما ألف ونشر ، بل كذلك بما لا يزال يخلقه ويواصل معاناته فى شتى ابواب الادب ، لاني انزهه من الغرور بما افاءت عليه قصصه المنشورة من مجد وخلعت عليه من شهرة ، واعرف ان من اضطربت فى نفوسهم النار المقدسة لن تأتى على همته صروف الدهر العاتية وشؤون الحياة الزائلة .

اما «مشموم الفل !!» ، فانى أفضل ان يتشتم القراء شذاه مباشرة !

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

محمد مزالى

(أبريل 1971)

مقدمة لرواية « برق الليل »

مقدمات الكتب هي القسم الذي يمكن الاستغناء عنه غالباً ، لذلك نرى اكثر الكتب - خصوصاً الكتب الادبية - تخرج اليوم بدون مقدمة ، هذا اذا كانت المقدمة بقلم المؤلف نفسه ، اما اذا كانت لغير المؤلف فهي في اغلب الحالات نوع من الفضول .

قصة (برق الليل) هذه تحتاج الى مقدمة لان مجلة (الفكر) نشرت نماذج منها . فاطلع عليها الناس وقالوا فيها اشياء كثيرة في الصحافة والاذاعة واحاديث المجالس قبل ان تظهر القصة كاملة في صورة كتاب . . .

قالوا عن القصة انها قصة (رائعة) وقالوا عن مؤلفها انه (نابعة) و (عبقري) الخ . لقد عرفت المؤلف وعرفت فيه مواطناً عاقلاً رشيداً يخجله المدح ويحرجه الاطراء فلا خوف عليه - والحالة هذه - من آفات الانخداع والغرور .

وقالوا : ان بعض الصور والحوادث في هذه القصة لا تتفق كل الاتفاق وما جاء في كتب التاريخ تقدم الحقائق مجردة عن الخيال ، وهي مسالة فيها نظر .

المؤرخ السياسي يستعين بالخيال في جعل الحوادث تنطبق على نظرياته السياسية . وكذلك يفعل المؤرخ الاقتصادي والمؤرخ الحضاري والمؤرخ الثقافي والمؤرخ الادبي . فلم لا يباح لكاتب القصة ما يباح لغيره ؟ ان مجرد اختيار الحوادث يكفي لقلب الحقائق او خلطها بالخيال . الم يختار ابن خلدون من الحوادث ما وافق نظريته في اعمار الدولة فجاءت نظرية غير صحيحة ؟ اذا

دخل الحادث فى الماضى المتباعد المتلاشى فقد صار نوعا من الخرافة ، يختلط فيه الظن باليقين والحقيقة بالخيال . اما النقل عن شهود العيان ، فاسال القضاة والمحامين يخبروك عن شهود العيان وعن قيمة شهاداتهم . فما يدرينا ؟ لعل الخيال فى قصة برق الليل يكون اقرب الى الحقيقة من (اخبار) ابن ابي دينار ...

وقالوا : ان استعمال اللسان الدارج التونسى فى الحوار وبعض الوصف قد نقص من قيمة القصة وانها لو جاءت كلها بالعربية الفصحى لكان احسن خصوصا وان الكاتب يقدر على ذلك بسهولة .

لنترك مسألة الطابع التونسى والالوان المحلية ، ونترك الجمل التى لا يمكن نقلها (بسهولة) الى العربية الفصحى ونكتفى بمثال واحد بسيط ، هو قوله : اللطف عليك (صحيفة I43) ، تلك الجملة التى نفذت حالا الى القلب واسالت عصى الدموع . هل يكون لها نفس التأثير لو نقلناها الى العربية الفصحى فقلنا (لطف الله بك) او بحثنا لها عن مقارب من نوع (فدتك نفسى) او (بابى انت) ، فنقلناها من تونس الى العراق او الحجاز ورجعنا بها من القرن العاشر الى القرن الثانى !

(اللطف عليك) عبارة تكاد تكون خاصة بالنساء فى تونس ، تقولها المرأة لامها وابيها واختها واخيها وزوجها وبنيتها وكل عزيز عليها ، وتضمنها من الوان العطف والحنان وجميل المواساة ما يتعذر وجوده مجموعا فى عبارة واحدة من لغة او لهجة اخرى . فهل نفرط فى مثل هذه العبارة وفى قيمتها الفنية لا لشيء الا ليقال ان القصة كلها مكتوبة بالعربية الفصحى ؟ ان ذلك لمن الضلال البعيد والخسران المبين !

والقصة نفسها يمكن ان نسميها قصة غرامية تاريخية . ولكن ليس من النوع الذى يمكن تلخيصه فى مثل قول الشاعر :

راى فحب ، فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيله ، ففضى

اول قول الآخر :

كان يهوى ليلي ابن عم ليلي فابتغاهها من اهلها كخطيب
ولقد اخبروه من بعد حين ان ليلي قد زوجت بغريب

اول قول الآخر :

نظرة فابتسامة فسلام ف كلام فموعد فلقاء
انها اشبه بقول الآخر :

فتتار كنا ... على غير شيء ... ربما افسد طول التمداد ...

وهذا يبعدها عن قصص الغرام العادية ويكسبها طرافة تتجلى في موقف
الاسود في خاتمة القصة لما (اخذ عصا التسيار واثبت فيها الصرة ووضعها
على كتفه ومضى مع نسيم الفجر) - مضى منهزما كالمنتصر ... ومنتصرا
كالمنهزم ... او منهزما منتصرا معا

اتمنى ان ارى هذه القصة في صورة فيلم وارجو ان يتاح لها
ذلك .

نور الدين بن بلقاسم

تحليل رواية « الدقلة في عراجينها »

إذا كان المسعدى قد انطلق فى أدبه من الواقع القديم ليصور بذلك نظرتة الوجودية تجاه واقع الانسان المعاصر .

وإذا كان الدوعاجى قد انطلق من الواقع التونسى فيما بين الحربين وبعيدهما بقليل فوسعه بالتحليل ، وعمقه بتصوير المشاعر الانسانية . حتى بلغ بذلك مستوى رفيعا برسمه للنماذج البشرية الحية المتحركة .

إذا كان هذا هو ادب المسعدى والدعاجى . فان الاستاذ البشير خريف قد ارتكز فى اقاصيصه على واقع الجريد المحلى ، ولكنه مع ذلك استطاع أن يصور لنا واقع المجتمع الريفى بأمانة وعفوية . وسننظر هاهنا فيما انتجه البشير خريف نظرة شاملة معتمدين خاصة على رواية « الدقلة فى عراجينها » . التى تروى قصة بطل اسمه المكى ، وبطلة اسمها العطراء . فيعشقان بعضهما ، ولكن كلاهما يتردى فى نهاية مأسوية ، ولا يظفران فيعشفان بعضهما ، ولكن كلاهما يتردى فى نهاية مأسوية ، ولا يظفران بأحلامهما الحبلى بالحب والتطلع . اذ يموت المكى بالسل . وتموت العطراء كذلك بنزيف الدم . كأن القدر الذى فرقهما فى الحياة اراد ان يجمعهما فى علة الموت .

يبنى الاستاذ خريف روايته على التناظر او التقابل بين الاجيال فعبء الحفيظ وعلى الزبيدى يمثلان الجيل القديم من الرجال . يقابل هذا الجيل جيل آخر أكثر تفتحا للحياة ، وأكثر تفهما لامورها ومتطلباتها . ويمثله العربى والمكى .

أما جيل النساء القديم فتمثله رقية ودوجة والعجوز حمالة الاسرار للنساء .

يقابل هذا الجيل جيل آخر من النساء نساء نشأة تقليدية ، ولكنه كان يحاول الانطلاق والخروج من وضعه المحدود .

ويتمثل هذا الجيل فى العطراء وصديقاتا : حفصة وفجرة ، وتونس . وهذا الجيل الاخير من النساء قد تشرب كل خصائص الجيل القديم الا ان النفس فيه ما زالت تحن الى الانطلاق والتحرر ، وتحن الى الحب والى نوع من الحياة اكثر خصوبة ، واقل قساوة مما هن فيه .

ومن اجل هذا التناظر بين الاجيال فى الرواية ، ومن اجل التفاوت فى المفاهيم وفى النظرة الى الحياة نشأ الصراع بين القديم والحديث ، وبين نزعة الشر فى المجتمع الذى تصوره الرواية . ولكن نزعة الشر التى يمثلها عبد الحفيظ تتغلب على نزعة الخير فى النهاية المتمثلة كذلك فى المولى والمكى وتفتك بنزعة البراءة والطهر المتمثلة فى العطراء .

يظهر عبد الحفيظ رجلا يتعلق بالتقوى ولكنها تقوى يتخذها غشاء لتغطية نواياه السيئة نتيجة حبه المفرط للثروة ، والاستحواذ على املاك الغير . وبذلك يحقق فى ذاته صفة المخادعة للنفس وللغير ، فتكون من ثمة صلاته وعبادته رياء .

وهو لا يتورع من تنغيص حياة أخته دوجة ، وذلك بفصلها عن زوجها على الزبيدى . كى يضم نصيبها من غابة النخيل الى املاكه . ومع حب هذه لزوجها فانها لا تستطيع ان تتمرد لانها من اللاتى شربن كأس الاستسلام ، وحسبن الرجال هم المثل الاعلى فى الحياة . ونسبن انفسهن . فنسى بذلك المجتمع نصفه الحى ، وشطر قلبه النابض .

ويجيد الكاتب فى هذا الموقف تحليل نفسيته ، فهى حتى فى وقت الصلاة تلهج شفاهها بالابتهالات . ولكن قلبها يفكر فى حب اخيها المولى لزوجته « تبر » واخلاص هذه لزوجها الذى جعلها من أسعد نساء الجهة ، فالمولى هو الرجل الوحيد الذى استطاع أن يتعرف على زوجته « تبر » قبل البناء بها فى كامل حى « المواعدة » وقد كانت بينهما ليالى وغراميات قبل الزواج .

وهذا ان فسر شيئا فانما يدل على تعطش المرأة الريفية الى تلك العاطفة المشروعة فى الحياة ، والتى لا تجدها مع زوجها ، لان الرجولة عند الريفى الجاهل تتمثل فى اهانة المرأة ، وسبها ، وشتها ، وضربها ان اقتضى الحال ، ليثبت بذلك فحولته .

وما على المرأة إلا الاستسلام ، لأنها بحكم البيئة التى نشأت فيها ترى أن ذلك شئ طبيعى لها . وأنها خلقت لذلك . كأن الحياة طاحونة يسحق فيها الانسان عمره على مهل ليقطع مسافتها لاهثا بين اللعب والنصب ، مغمضا عينيه عن كل حسن ، قافلا باب قلبه عن كل عاطفة بشرية مشروعة .

هذا هو شأن دوجة مع زوجها . وشأنها مع أخيها عبد الحفيظ ، وشأن هذا الاخير مع نسائه ، وشأن النساء الاخريات مع رجالهن ، واللاتى تتبين رائحة استسلامهن من خلال التصوير العام للرواية .

ويموت المولدى ، والد العطراء ووالد العربى ، فتحتملها العمة دوجة والدة المكى . لكنها امرأة ضعيفة فى تلك البيئة القاسية لا تستطيع أن تطلب حقها ولا حق ابنى أخيها كاملا فيضيف عبد الحفيظ أملاك أخيه الراحل الى

أملاكه .. وذلك بواسطة « كتب » يقوم به العدول ، وقبر أخيه لم يجف بعد وبذلك يكشف لنا البشير خريف عن وجهه من الوجوه السوداء لهذا المجتمع الذى يرسمه ذلك الوجه المبطن بالجشع وحب الذات والانانية المفرطة . اذ تبدو أواصر القربى وعلاقات الاخوة فى هذا المجتمع الذى تلف جنبته المادية ، وتثقله الاهداف الشخصية ، ضربا من الزيف ، وصنفا من أصناف البهتان ، فلم يتحرك ضمير عبد الحفيظ لمأساة أخته دوجة وتقطع قلبها بين ابنها وزوجها .. ولم يحرك قلبه ذل العطراء وانكسار المكى والعربى . بل يعمد الى اكثر من ذلك فيخرج على الزبيدى من أملاكه ، وذلك بالاستعانة بالحكام الذين يغدق عليهم بالارتشاء أموالا كثيرة .

وفى احضان دوجة يعيش المكى العطراء ابنة خاله .. ولكن لم تمض مدة بعد حبه لابنة خاله حتى ماتت دوجة وتركت العطراء والعربى والمكى بلا معول فاستغل عندئذ عبد الحفيظ الفرصة ، وحرم على المكى الاتيان الى منزل خاله المولدى حيث تقيم العطراء . وحيث ماتت أمه

وتنشأ من هنا مأساة العطراء ومأساة المكى الذى يهاجر الى المتلوى . وسفره الى هنالك جعله الكاتب تعلقة ليستطيع وصف حياة العمال فى المناجم

فيصور لنا حياتهم ومساكنهم وامتيازات الاجانب على العرب فى الاجور والمعاملة .

واذا بهذه المجموعة المنتهكة المستضعفة ، تهدد نفسها بنفسها كشان المستضعفين فى الارض . فتغرق نفسها فى الخمر وفى لعب الورق وقت الفراغ من العمل . ويشاء الكاتب أن يجعل من هؤلاء المستضعفين أبطالا يكونون حركات عمالية . ويقومون باضرابات تفسد سير العمل فى المناجم ويشاء الكاتب كذلك أن يجعل من « الدبنحق » والناصر والطاريور وصالح الزاهى أبطالا فعالين ، خلاقين لروح النضال فى هذا المجتمع المستكين ، ولأجل هذا يزوج بهم فى السجن . وفى هذا الوضع بالذات من الرواية بإمكان القارئ ان يستنتج مفهوم البطل عند الكاتب .

فالبطل عنده ، ليس ذلك الذى يذكره التاريخ ، ويعمل الشغب ليضخمه ويعظمه بأحداثه ، وتعمل الظروف المختلفة على إبرازه الى حيز الوجود . انما البطل الحقيقى هو ذلك الذى نسيه التاريخ ، لانه ناضل بلا جعجعة ، وتفانى فى سبيل تحرير الامة بلا ضجيج .

ويبرز المكى فى هذه الحياة الجديدة ، بطلا ذا شهامة وشجاعة . وهو فى هذا يشابه كثيرا الصادق بل قصة . « محفظة السمار » اذ كلاهما يريد الفداء وان كانت نهاية كل واحد منهما مختلفة .

ينال المكى حظوة فى هذه البيئة فينسى او يتناسى العطاء ، ذلك القلب النابض بحبه ، وذلك بسبب تعشقه لخادمة أحد المهندسين الفرنسيين .. والكاتب يشير بذلك اشارة خفية الى محاولة كثير من الشباب الذين هم من الطبقة الكادحة ، يشير الى محاولة هؤلاء الانسلاخ عن طبقتهم ليمتزجوا بطبقة جديدة . وكثيرا ما يكونون خاسرين . لانهم كلما صعدوا فى السلم الاجتماعى درجة الا وسقطوا درجات .

سأت اخلاق المكى وتوالت عليه المصائب فمات والده ، وطرده من العمل نتيجة تنظيمه للحركات العمالية .. ويتردى (فى النهاية) بين أحضان عاهر اسمها « غرسة » فتسلبه نضارة الشباب . وتمتص منه ما جمع من مال

فيغرق هو بدوره في الخمر والحشيش ككل المنهوكين بالصدمات .. ولم يجد بدا من مغادرة بيئة المتلوى التي تعفنت به ، وتعفن فيها ، ليرجع الى مسقط رأسه مريضاً بالسل ، منهوك الاعصاب بليالي الغرام مع غرسة ... ويسرع خاله عبد الحفيظ الى تهيئة اسباب زواجه بالعطراء ، وذلك لكي يرث نصيبه من النخيل - بعدما يموت - عن طريق ابنة اخيه العطراء لانه كان متيقنا بأن المكي سوف لن يعيش بسبب الداء الذي ألم به ..

وتنشأ خصومة بين العررسى الاخ الحقيقي للمكى ، وبين خاله عبد الحفيظ اذ كلاهما يحاول ان يحتفظ بقسم المكي فى النخيل لنفسه والحال ان المكى ما زال حيا ، ولكنه كان يغيب عن الوجود كل يوم . وكانت العطراء تتألم لآلمه وتشكو لشكواه ويحلل الكاتب نفسية العطراء عندما مات المكى تحليلا عميقا مؤثرا ، يستشف القارئ من خلاله مقدار قيمة الانسان فى امثال هذه البيئات فاذا قيمته تتراوح بين الضعة والرفعة على قدر حظه من الغنى والفقر . واذا الانسان تأفه كآفته ما يكون ، لانه يقاس بمقاييس مادية محدودة ، لا تأبه بميوله واحساساته ، ولا بعقله وقلبه . وتتضخم مأساة العطراء عندما تجد نفسها وحدها بلا قلب حنون امام عم جلف لا ينظر الا الى الكسب . <http://Archivebeta.Sakhril.com>

وتتزوج ابنة الحفناوى الذى قضى عمره يقتنص « التطويح » من جامع الزيتونة فيفلت منه فى كل سنة ، ولكن تحصل عليه فى النهاية بصعوبة عندما تزوجته العطراء فى سنه هذه راضية به رغم قبح منظره وعظم بطنه .

ومرضت العطراء بضررها ، فرافقها الحفناوى الى صفاقس ، ولكنه البسها لبسة رجال ، كى لا يعرف الركاب انها امرأة . وتشاء الصدفة فى الرجوع أن يقلع القطار ووسط العطراء ، بينما يبقى عبد الحفيظ فى المحطة يحاول من مديرها كى يعطيه تذكرتين فى مكان منفرد . كى لا ينظر الركاب الى زوجته .

يصور الكاتب كل هذا فى أسلوب ساخر يحمل فى أعماقه الالم والحسرة على ذلك الشباب الضائع الذى يصادف بيئة عفنة غير صالحة للنماء . يقول

الحفناوى لمدير المحطة عندما سافر القطار بالطراء وتركه ، ملتصقا من المدير ان يخبر محطة قفصة كى تحتفظ بالطراء حتى وقت لحاقه :

- ريقى ببس يا أمة محمد ، أمينه يرحم الوالدين يا سيدى « الشاف » .
- ايجا تفضل ارتاح هنا ، لا باس عليك .
- راهى غشيمه ما تعرف حتى شىء .
- موش لازم تعرف حتى شىء ، ريج نفسك ، وامش للبلاد اعمل دوره ، وكيف تجىء الثمانية ، اركب والحق عليها .
- راهى لابسہ برنوس وعامله مرايات على عينيها .
- عجائب ! هاى اماله تبارك الله عليها رجاله ها المرا عندك .
- واش من رجاله ، بهيمه حشاك ، خفت من الفضيحه ياخى جيت فى الفضيحه .

بهذه اللقطة الصغيرة بين لنا البشير خريف قيمة المرأة عند رجل الريف ، فاذا بها حيوان يساق الى حيث يشاء ملاكه ، وشىء يوضع فى مكان لينتقل بعد حين الى مكان آخر .

ولم يكن هذا لظهار التفكه فحسب ، أو للتسلية لا غير ، انما كان هذا للسخرية ، ولاظهار شخصية الحفناوى الرجل المثقف صاحب التطوع ، فى صورة الرجل الذى لا يعرف غير المدرسة ولا العلم . والبشير خريف يطرح فى هذا المقام سؤالاً عريضاً بطريقة خفية : ما الفرق بين التعلم والثقافة ؟؟

فالحفناوى الرجل المتعلم لو قارناه بخماس المولى للمسنا ذوقا ورهافة حس ونبل عند الحماس ، ولوجدنا سوء فهم وتبلدا فى الاحساس ، وفساد ذوق عند الحفناوى ويكون بذلك هذا الاخير الانموذج البشرى فى الرواية الذى تسأله طبيعة الحياة نفسها ، لانه لا يؤثر فيها ولا يزيد فى نمائها من ناحية ، ولانه من ناحية اخرى رمز للمجتمع الفاسد ، المحشو بالكذب والنفاق . فهو يكذب على الطراء ، ويحكى لها عن مغامرات خيالية قام بها مع بنات تونس ، ويصور لها انقياد الطلبة لآرائه ، فتشعر الطراء بضعفها أمام العظمة الزائفة التى يظهر نفسه فيها ، وتشعر بالخزى عندما تفكر فى الفارق الزمنى بين سنه وسنها ، فتنتطوى على نفسها ، لانها تكرهه ، ولان

حب الشاب الصبوح ، الذى قضت معه ليلة نواسية فى قفصة لم يمح من ذاكرتها . كان ذلك عندما هرب بها القطار .

وتزداد نفسية العطاء تأزما وعزوفاً عن الحياة عندما يتزوج الحفناوى معها امرأة ثانية .. وتموت العطاء بنزيف الدم على غرار « غادة الكامليا » .

تبدو العطاء كما يظهر المكى فى الرواية الانموذج البشرى الذى يحترق فى أتون المجتمع الفاسد ، فيتعذب كلاهما بالقلق والوحدة . ولم تجد العطاء ما تعوض به آلامها ، وتنتهى به همومها الى حين ، سوى الاغراق فى العبادة . شأن الذين يصدمون بواقع يخالف تصوراتهم .

وأبطال البشير خريف من الرجال يتصفون بالشهامة ، والرجولة ، والفداء والتفانى فى سبيل الخير .

يقابل هذا الصنف نوع آخر من الناس لا يرون الاشياء ولا يفكرون فى علاقاتهم مع الآخرين الا على أساس المادة .

والصنف الاول يمثله المكى والعربى والمولدى فى رواية « الدقلة فى عراجينها » . كما يمثله الصادق فى قصة « محفظة السمار » .

أما الصنف الثانى فيمثله : العروسى وعبد الحفيظ . فى رواية « الدقلة فى عراجينها » كذلك .

وعبد الحفيظ فى هذه الرواية يشبه كثيرا من الناحية النفسية والسلوكية عبد الحفيظ بطل أقصوصة « من رزقه » التى نشرت بالفكر - جوان 1962 .

ومن النماذج البشرية التى لا تنظر الى قيمة الشيء الا بمقدار افادته « خليفة الاقرع » ..

فأبطال البشير خريف كما سبق ينقسمون اذن الى قسمين :

قسم يتصف بالشهامة ، وقسم يتصف بالزور والتحيل ، فيحاول أن يصل الى أغراضه ، بطرق ملتوية ، لاعهد لنا بها من قبل .

فـ « خليفة الاقرع » يستغل قرعه ، ليغازل البنات والنساء ، ويشعر بالمأساة تأخذه اخذا عندما يرى الشعر قد بدأ ينمو على صلعتة ، لانه يرى فى ذلك انذارا بابعاده عن النساء .

أما البطلات عند خريف فهن مخلصات وفيات ، لا لانهن من صنف لا يعشق الا رجلا واحدا . بل لانهن من النوع التقليدى مشبعات بالشعور الدينى ، يحسبن الحب لغير رجل واحد مستحيلا . والنظر لغير الزوج الذى ربطت بينه وبين الواحدة منهن أغلال التقاليد ، من المحرمات .

ولذلك فهن خاضعات ، مستسلمات ، راضيات بما هن فيه . وخضوعهن هذا يولد فيهن نوعا من الخبث ، فتكيد المرأة لزوجها كيدا ، فتسحره ، أو تغشه بشئ من الاشياء حتى لا يتزوج عليها امرأة أخرى ، وحتى يحبها حبا . والنساء فى أقاصيص خريف عشاقات .

فلقد عشقت نفيسة الصادق فى « محفظة السمار » وبقيت مخصصة له طول حياتها .

وعشقت « الحسناء المتخفية » برث الليل العبد الاسود . اذ كانت تنظر اليه كل ليلة فى غفلة منه عندما يكون غارقا فى الرقص والغناء .

وعشقت العطاء الشاب الوسيم الذى رآته لأول مرة فى القطار وقد ازداد حبا له عندما قضت معه ليلة نواسية فى قفصة . وكانت تستعيد لذة تلك الليلة وهى تعاني آلام المرض بواسطة الحديث الباطنى .. مما جعل الفصول الاولى من رواية « الدفلة فى عراجنها » تختلف تماما عن الفصل الاخير منها ، فالفصل الاخير (وان كان موحدا مع الفصول الاولى عن طريق الموضوع) فهو يخالفها تماما من الناحية الفنية . فهذا الفصل نجده مكتوبا كأحسن ما تكون كتابة الرواية الحديثة .. بخلاف الفصول الاولى ، التى لا يتحرج الكاتب فيها من ايراد أبيات شعرية فى كثير من المواضيع ، على غرار حكايات ألف ليلة وليلة ، وعلى غرار أقاصيص الادب الشعبى ، التى يمتزج فيها الشعر بالنثر .

والشئ الغريب والممتع حقا ، هو نظام المصادفة الذى يعج به عالم الرواية عند البشير خريف :

فمن المصادفة أن تتعرف العطاء على الشاب الوسيم فى القطار . فى الوقت الذى كانت فيه ذاهبة للمداواة بصفاقس ومن المصادفة أن تسقط

العطراء عندما هرب با القطار بين يدي غرسة - المرأة المومس ، التي سلبت الشباب وروح الشهامة للمكى ابن عمته وحبيبها الاول .

ومن المصادفة أن يموت المولدى وتموت زوجته فى وقت متتابع ، لتنطلق من ثمة المأساة التى تحيق نتائجها السيئة بالعطراء والعربى والمكى ؟ ومن المصادفة أن يكون التجنيد فى وقت المأساة الحقيقية لعائلة المولدى وعلى الزبيدى ، فيذهب العربى الى الجندية ليعود بعد سنين مبتور الساق .

ان هذه المصادفات الغريبة جعلت الابطال فى رواية « الدثلة فى عراجينها » وفى بعض الاقاصيص الاخرى ، يساقون قسرا الى نهايتهم التى وصلوا اليها ، فهم فى عالمهم القاسى هذا يقاومون ويحاولون الخروج من أوضاعهم المفروضة عليهم فرضا . ولكن مقاومتهم تذهب مع الريح . فيفنون بتتابع غريب .. وذلك لان العالم الذى يعيشون فيه يسوده الشر ، وتملؤه الانانية ، ويشوه سماحته الغش والكذب والنفاق .

ورمز الشر فى هذا العالم يتمثل فى عبد الحفيظ هذا الشيخ المسن الذى بقى الى آخر الرواية كأنه سيف قضاء مسلط على رؤوس العباد .

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ويظهر الاستاذ خريف متشائما على رغم ما يبدو فى عالمه الروائى من مرح وعفوية ، باعتبار أن نزعة الشر هى التى تتغلب فى النهاية .

ولكن - مهما يكن من امر - فقد استطاع البشير خريف أن يصور لنا الانسان فى مجتمع الجهل والانانية ، حتى تصير القيم بضاعة خاسرة . وتصبح الاخوة والصداقة ، وسائر العلاقات البشرية ، ضربا من ضروب الزيف والنفاق .. ويصير الدين ستارا من بين الاستار التى يغطى بها وجه الحقيقة .. صور كل هذا بأسلوب سهل بسيط يمتاز بالعفوية ، وعدم الكلفة وتخالطه كلمات دارجة فى كثير من المواضيع ، ويتخلله حوار عامى أغرق الرواية فى الواقعية الى « اذنيها » وقلل من قيمتها الانسانية وذلك بحشرها فى نطاق الاقليمية الضيقة الشئ الذى اضطر الكاتب فى كثير من المواضيع الى تفسير الكلمات الدارجة التى لا يعرفها الا أهل الجريد .

نور الدين بن بلقاسم